فاضل العزاوي

القلعة الخامسة



رواية

منشورات الجمل

فاضل العزاوي

القلعة الخامسة

رواية

منشورات الجمل

فاضل العزاوي، شاعر وناثر، ولد في العام ١٩٤٠ في مدينة كركوك في العراق. درس الأدب الإنكليزي في جامعة بغداد والصحافة والعلوم السياسية في جامعة لايبزج وحاز على درجة الدكتوراه عن أطروحة حول الثقافة العربية. عمل في الصحافة العراقية والعربية وأصدر مجلة "الشعر ٦٩". نشر ما يقرب من عشرين مجموعة شعرية ورواية وكتابا نقديا (**مخلوقات فاضل العزاوي الجميلة**، رواية ١٩٦٩؛ **القلعة الخامسة**، رواية ١٩٧٢؛ **سلاماً أيتها الموجة، سلاماً أيها البحر**، شعر ١٩٧٤؛ **الشجرة الشرقية**، شعر ١٩٧٦؛ **الأسفار**، شعر ١٩٧٦؛ **رجل يرمي أحجاراً في بئر**، شعر ١٩٩٠؛ **آخر الملائكة**، رواية ١٩٩٢؛ **صاعداً حتى الينبوع**، أعمال شعرية ١٩٩٣؛ **في نهاية كل الرحلات**، شعر ١٩٩٤؛ **بعيداً داخل الغابة**، نقد ١٩٩٤؛ **الروح الحيّة، جيل الستّينات في العراق** ١٩٩٧؛ **فراشة في طريقها الى النار**، شعر ١٩٩٨)، فضلا عن الكتب التي ترجمها عن الإنكليزية والألمانية (**صاحب الفخامة الديناصور**، رواية ١٩٩٥؛ **سماء وأرض**، مختارات شعرية ١٩٩٦، **دماغ لينين**، رواية ١٩٩٨). كما ترجم العديد من أعماله الى اللغات الإنكليزية والألمانية والفرنسية. غادر العراق في ١٩٧٧ ويعيش منذ العام ١٩٨٣ في برلين ككاتب متفرغ ينشر أعماله باللغتين العربية والألمانية.

فاضل العزاوي: **القلعة الخامسة**، رواية

الطبعة الأولى، الغلاف: سالمة صالح

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

الفصل الأول

داخل الشاحنة التفت الي الشرطي الذي يجلس لصقي وسألني بشيء من سخرية مكتومة:

– هل أنت منهم أيضا؟

كان وجه الشرطي يميل الى الدكنة في ظل المساء الرائع الذي بدأ يهبط فوق المدينة منذ أكثر من ساعة. نظرت اليه بهدوء، مفرغا من الحقد او الحب فرأيته يبتسم بطريقة بدت لي همجية جدا. كان يدخن بسكينة كما لو انه ليس شرطيا ويتكئ بذراعه اليسرى على بندقيته، قريبا من بوابة الشاحنة، حيث يجلس على مقعد طويل يلتف عند النهاية ويعود مرة أخرى الى المقدمة على شكل حافر الحصان. سكت، إذ لم تكن عندي رغبة في الكلام وانتابني شعور مؤلم بأن كل شيء أصبح سيئا. لقد فقدت نفسي. مد الشرطي يده الى كتفي وقال:

– حسنا، إنك خائف. لا بأس. ولكن لماذا ورطت نفسك؟

إنتابني إخاء شديد إزاء هذا الشرطي الذي لن يتورع من أن يطلق النار على ظهري فيما إذا حاولت الهرب. قلت:

- لست خائفا، فقد اعتقلت خطأ ولا بد من أن يطلق سراحي بعد أيام.

ضحك أحد المعتقلين الخمسة بطريقة مخجلة وقال:

-إذا كانوا ينوون اطلاق سراحك فلماذا أرسلوك معنا الى هذا المعتقل الذي يطول فيه سجن المرء؟

تدخل الشرطيان الآخران. قال أحدهما:

- هذا لا يمنع من اطلاق سراحه بعد أسبوع.

علق الشرطي الثاني قائلا:

- لقد أطلق أمس سراح ثلاثة كانوا معي. عندما ودعتهم أعطوني دينارين. كانوا حقا شبانا رائعين.

أضاف الشرطي الثالث بألم:

- لا أدري أي طاعون يأكلكم. إنها اللعنة. أعرف إنها اللعنة حلت على هذه الأرض.

*

كانت الشاحنة تعبر الليل، مخترقة شوارع بدت لي جميلة جدا، كما لو أنني أراها لأول مرة في حياتي. فكرت، لا بد أن اعتقالي هو الذي يجعلها جميلة هكذا. وعبر قضبان الشاحنة رحت أحدق في المارة الذين كان بعضهم يتوقف وينظر الي. لم أحاول أن أبعد عيني عن عيونهم. كنت

أشعر بطريقة ما بالزهو أيضا، فأنا رجل خطر حتى إذا لم أكن قد ارتكبت ما يبرر اعتقالي. وكان ثمة مارة آخرون يبتسمون ويتهامسون فيما بينهم. لا أدري ما الذي كانوا يقولونه عني، عنا، ولكنني حاولت أن أخمن أفكارهم. كانوا معي على أي حال. بيد أن كل هذا ما كان يعنيني بقدر ما كنت أريد أن أتحرر من الورطة التي وقعت فيها.

إنه لأمر صعب حقا أن يتذكر المرء تفاصيل شيء ما يعرفه جيدا، او هذا ما يمكن أن أقوله عن نفسي على الأقل. فأنا أعرف الأشياء وأكتفي بذلك. ولكن إذا ما سئلت عن لون عيني أمي مثلا فلن أكون قادرا على الإجابة. إنني أعرف روح الناس الذين أشعر بألفة تجاههم وروح الأماكن التي أنتسب اليها. بيد أنني أعجز أحيانا عن الحديث عن أقرب الأمور الى قلبي وأضطرب كما لو أن عاصفة تضرب أعماقي. وإذ أكون منهمكا بقضية ما أفكر فيها كما لو أنني لا أفكر فيها، كما لو أن غيمة غير ممطرة تعبر رأسي. إنني أنظر الآن وأرى الناس كما لو انني لا أراهم، ذلك لأنني منغلق على نفسي كالدائرة. ورغم أوجه الشرطيين الصارمة، رغم كل مخاوفي وأفعالي المبتذلة وأنا

في الطريق الى المعتقل لم أكن قادرا على التفكير تماما. كنت مهووسا ومشتتا مثل مدخنة تنفث في العاصفة. كنت متضايقا ومبتهجا بالحدث الجديد في حياتي في آن، دونما مبرر معقول. ربما فكرت أنني يمكن أن أصادق أناسا جددا لا أعرفهم. الصداقات الحتمية. لأنني سوف أكون معهم. ربما فكرت أنها مغامرة من نمط جديد. كنت أدخن هادئا مثل بغل في المطحنة. في البدء شعرت برهبة شديدة اختفت فيما بعد مثل أي إحساس آخر وامتلأت بوقائع وأحداث لا يمكن استحضارها بسهولة. رأيت (ربما بطريقة فكاهية) أنني أنتصر من جديد، أدخل مدنا مبنية بالجص والفولاذ مثل فاتحي العالم القديم، حيث تنهمر علي من الشرفات والسطوح الشرائط الورقية الملونة. ها أنذا أختنق بأصابع لا أعرفها، الا أنني فرح مثل غابة. لا أعرف لماذا. ربما لو عرفت السر لاختفى فرحي وخوفي معا. بيد أنني وأنا أرصد عواطفي (نهر هائج في أرض صخرية وفي القعر تتكدس حصى ملونة، وعلى الضفاف تنبت زهور برية فواحة) قلت: لا بد أنها المفاجأة. ها هو العالم يتغير بدون جهد بالنسبة لي. وفكرت: أي أمل يرجى من عالم يقف وسط دائرة! إنها الدائرة تنهار. ولكن انهيار الدائرة لم

يكن ليشكل لي عزاء حقيقيا، فثمة على الدوام توجد معنا وخارجنا دوائر ينبغي أن تحطم.

كنت داخل الدائرة أحلم مثل طفل مطرود يبكي. ماذا لو انقلبت الشاحنة الآن؟ لم أكن أطلب الموت ومع ذلك فان بعض الرضوض تكون كافية. فقد يؤدي ذلك الى اطلاق سراحي. سيأخذونني الى المستشفى، نادمين، آسفين على ما أصابني. سأخبر الطبيب بكل شيء. لابد أنه رجل طيب. سيقول لي: هذا صحيح، لابد من أن تخرج. من العار أن يسجن إنسان لم يرتكب ذنبا. يغيب الطبيب ساعة، ساعتين، ثلاثا . وأفقد الأمل. لكنه يعود في اليوم التالي. إنه يعود دائما، فرحا جدا ويقول لي: هناك أمل. إنه لا يريد أن يفاجئني دفعة واحدة. ثم يقول لي أخيرا ضاحكا: حسنا، أنت حر، لقد اكتشفوا أخيرا خطأهم. إرتد ملابسك وانتظرهم. سوف يأتون اليك بعد قليل ليعتذروا منك. سأقول له: ليس ثمة من مبرر للإعتذار. كل ما في الأمر هو أنهم أساؤوا الظن بي ثم اكتشفوا الحقيقة. وهذا هو ما يهمنا جميعا.

*

أوغلت الشاحنة داخل زقاق جانبي مظلم تمتد على جانبيه أشجار يوكالبتوس مرتفعة ثم توقفت عند بوابة حديدية مغلقة الا من فتحة صغيرة على شكل مربع في الوسط. هبط المفوض الذي كان يجلس عند السائق ونادى على الشرطيين داخل الشاحنة:

- إنتظروا، سأعود بعد قليل.

نهض الشرطي الذي كان يجلس على مقربة مني وقال:

- نعم سيدي.

بينما ظل الإثنان الآخران يدخنان كما لو أن الأمر كله لا يعنيهما في شيء. وكان ثمة معتقلان آخران يتحدثان فيما بينهما. قال الأول:

- سنطلب الذهاب الى القلعة الخامسة.

تساءل الآخر مشيرا الي:

- وماذا عن هذا الذي ينتظر اطلاق سراحه؟

ثم التفت الي وقال:

- هل تريد أن تكون معنا؟

قلت بدون أي تردد:

- نعم فأنا لا أعرف أحدا هنا في السجن.

دفع الشرطي الواقف في الداخل الدرفة اليمنى من

البوابة بكتفه فانفتحت حتى منتصفها، مطلقة صريرا حادا. خرج المفوض الذي حمل أوراقنا الى السجن وقال، مخاطبا إيانا:

- هيا اسرعوا بالدخول!

كان ثمة ممر مظلم، يضيئه مصباح باهت تراكم عليه الغبار، وفي الجهة اليسرى سرير رخيص وضعت فوقه أكثر من بطانية مهترئة، وكانت الجدران ملطخة بشعارات رسمية باهتة. فكرت: أولم يكن من الممكن أن ينظموا هذه الفوضى؟ كان الخط رديئا والجمل ركيكة، محشوة بأخطاء إملائية ونحوية مضحكة. أما السور فقد كان مرتفعا جدا أشبه ما يكون بأسوار قلعة تاريخية. عبرنا الممر المظلم الى ممر واسع وطويل يمتد أمام القلاع الست التي يتكدس فيها المعتقلون. وفي الجانب المواجه كانت تقع غرف الإدارة. طلب منا الحراس الذين خرجوا مرحبين بنا بطريقة لا تخلو من السخرية التوقف ريثما يخرج مدير السجن من غرفته المواجهة للقلعة الثالثة. وقفت ساهما مع الآخرين الذين كانوا يتبادلون النكات مع حراس السجن. فقد سبق لبعضهم أن كان هنا. ورحت أفكر في المشبك

الحديد الطويل الذي يفصل القلاع عن الممر المكشوف. وعلى السطوح كان يقف عدد من الحراس المسلحين ينظرون الينا بود. انتبهت مرة أخرى. كان ثمة رجل ضخم الهيكل، يرتدي ملابس مدنية زرقاء يميل الى الإستدارة مع شوارب رقيقة تنحدر تحت أنفه. إنه المدير كما خمنت. كان يرافقه المأمور الذي يرتدي ملابس عسكرية أنيقة. نادى بأعلى صوته وهو يخاطب حراس السجن:

– هل انتهيتم من تفتيشهم؟

أجاب العريف المسؤول، وهو رجل ريفي بشوارب كثيفة ومسحة فكاهية:

– أجل يا سيدي، إنهم يريدون الذهاب الى القلعة الخامسة.

حدق فينا مدير السجن وقال بشيء من الأبهة:

– لا يهمنا المكان الذين ستكونون فيه، بل إننا نفضل أن تكونوا مع جماعتكم حتى لا تسببوا لنا المزيد من الصداع. كل ما أريده هو أن تكونوا مدركين لأنظمة المعتقل. لسنا مسؤولين عن اعتقالكم، فقد جيء بكم الينا وعلينا الإحتفاظ بكم حتى يتم اطلاق سراحكم او تذهبوا الى سجن آخر.

التفت الينا العريف وقال:

- سأقرأ أسماءكم واحدا واحدا، وكل من يسمع اسمه يحمل أمتعته ويتقدم.

بدأ بتلاوة الأسماء:

- أحمد حسين سلمان.

- نعم.

حمل على كتفه اليسرى فراشه الذي ينام عليه وابتعد عنا. إنه شاب يبدو في حوالي التاسعة عشرة من عمره. لم يكن مهتما كثيرا فقد كان يتعامل مع الأمر ببساطة كما لو أنه في بيته. وبيده اليمنى حمل حقيبة جلدية صغيرة خضراء واختفى في الممر الطويل.

- عصام كامل.

- نعم.

إنه رجل في الأربعين من عمره، ذو هيكل هزيل. كان يبدو متعبا. لا بد أنه ترك وراءه امرأة تحبه وأطفالا. غير أنه أسرع في حمل أمتعته وهرول باتجاه القلعة الخامسة التي لم أكن رأيتها بعد. ثم سمعت العريف ينادي:

- محمود سعيد.

إنه اسمي. ليس إسمي. قلت مرتبكا:

- إنه اسمي، أقصد أنه ليس اسمي تماما.

ضحك المدير وقال:

- ماذا تقول أيها الشاب؟ تعال الى هنا.

- إنه ليس اسمي. لقد حدث خطأ. إن اسمي هو عزيز محمود سعيد وليس محمود سعيد. ذلك هو اسم والدي.

قال المدير بعد أن سحب القائمة من يد العريف:

- لا يوجد هنا سوى هذا الإسم. ولا بد إنه اسمك. لا تؤخرنا. إذا كان عندك أي اعتراض فتقدم به فيما بعد. أما الآن فعلينا التوقيع على مذكرة استلامكم.

سرت في الممر الذي سلكه زميلاي السابقان قبلي بتثاقل.

نادى علي المدير:

- لماذا لم تأخذ أمتعتك؟

التفت اليه وقلت له:

- لا أمتعة معي، فقد اقتادوني من المقهى خطأ ولا بد أن...

قاطعني المدير:

- حسنا، حسنا، يمكنك الإلتحاق بجماعتك.

عند بوابة القلعة الخامسة وجدت كلا من أحمد وعصام

واقفين في انتظار الآخرين. وكان يقف الى جانبهم موقوف آخر يرتدي البيجاما، من معتقلي القلعة، صافحني وقال:

- سنجهز لكم كل شيء بعد قليل.

وقفت معهم أدخن بنشوة منتظرا وصول الآخرين، بينما تجمع بعض المعتقلين وراء بوابة القلعة الخامسة وراحوا يمعنون النظر فينا عبر الكوة الصغيرة الموجودة وسط البوابة الحديد المصبوغة باللون الأسود.

الفصل الثاني

ثمة أضواء خافتة في الساحة الواسعة الممتدة حتى السور الذي يفصلنا عن الغرف الإنفرادية، وفي الزاوية اليسرى من القلعة كانت توجد شجيرات عدة ارتفعت عن الأرض قليلا تحيط بها دكة ترابية بسيطة لحمايتها. كانت هذه الشتلات الجميلة حديقة الجميع. وعلى مقربة من المقهى المكون من غرفة غير مسورة تماما كانت تقع المراحيض المفتوحة على بعضها، حيث كان المعتقلون يواصلون أحيانا مناقشاتهم الحامية، فيما كان ثمة آخرون يتبادلون تحايا الصباح وأحيانا السيجاير، وهم يقضون حاجاتهم الطبيعية. وفي الجهة اليمنى، في الوسط تماما كانت تقع غرفة المطبخ التي يمكن اعتبارها أهم وأخطر مكان في السجن. وكانت ثمة ساحة أخرى تقع إزاء البوابة وتنفتح على الساحة الكبيرة. وعلى طرفي هذه الساحة كانت تقع غرف عدة تضم معتقلين خطرين وآخرين سهلين. وكانت ثمة خمس قلاع أخرى تتوزع على طرفي القلعة الخامسة التي كانت الأوسع بين هذه القلاع كلها.

بدا لي الأمر في البداية محرجا بعض الشيء، كما لو أنني أدخل حفلة لم أكن مدعوا اليها يقيمها غرباء. ولذلك جهدت في البداية أن أزوغ عن أنظارهم في زاوية ما، مكتفيا بالنظر خلسة اليهم. كانت ثمة حلقات من ثلاثة او أربعة أشخاص تجلس هنا وهناك، مقرفصة على الأرض، تحت سماء خريفية هادئة، فيما تهب ريح منعشة تملأ الجسد سعادة. وفي المناطق القريبة من الجدران والغرف كان ثمة معتقلون يغطون في نوم عميق، لا تكدره أصوات المعتقلين اليقظين. ومن مكبر الصوت المعلق على الجدار كنت أسمع الأغاني العاطفية المبتذلة تتكرر بدون انقطاع. وهناك تحت المصباح الكهربائي الواهن كان ثمة شاب خمنت أنه في الرابعة والعشرين من عمره يقرأ مستغرقا في كتاب كبير. كنت متكئا على الجدار أراقب الجميع باغتراب لا نهاية له. تعلقت نظراتي بإثنين يقطعان الساحة جيئة وذهابا، وهما يتحدثان بحماسة شديدة. لا بد أنهما يكشفان عن أملهما المغدور. ترى كم من الآلام تكمن خلف هذين الوجهين الجادين؟ ولكن يبدو أنني كنت مخطئا تماما، إذ سرعان ما أطلقا ضحكة مدوية وواصلا نزهتهما الليلية على نفس الخط الذي يقطعانه معا.

*

تقدم نحوي سلام (يبدو في الخامسة والثلاثين). إنه الشخص الذي جلب لي بطانيتين ووسادة وبيجاما، إذ لم أكن قد جلبت معي أي شيء من مستلزمات المعتقل، وقال لي:

– لابد أنك تفكر. لا تفكر. كل شيء سيكون على ما يرام.

انتبهت الى صوته وشعرت بشيء من الخجل الخفي:

– كلا لم أكن أفكر. كنت أراقب الموجودين فحسب.

– إنهم شبان طيبون بسطاء، سوف تحبهم كثيرا.

– هل هم هنا منذ زمن طويل؟

قال:

– ليسوا جميعا. هناك معتقلون منذ سنتين، وبعضهم يتوقع صدور أحكام قاسية ضده. وهناك طلبة وعمال معتقلون منذ شهرين. وقد أطلق سراح بعض رفاقهم في الآونة الأخيرة.

كان يتحدث بطريقة سهلة وبسيطة جدا. تجرأت وسألته:

– هل تعتقد أنني يمكن أن أمكث هنا زمنا طويلا؟

قال وهو يبتسم ربما لسذاجتي:

- إن هذا محتمل. ولكن لماذا تنظر الى الأمر من هذه الزاوية وحدها؟ أنت موجود هنا، وهذا هو كل ما في الأمر. ينبغي أن تعتاد على قبول هذه الحقيقة.

جاهرته بصراحة:

- ولكنني أجد ذلك صعبا. لا بد من أن أخرج من هنا.

أوشكت على البكاء. شعر الرجل بألمي الممض فقال لي:

- تعال لنشرب الشاي.

تناولنا شاينا وقوفا بدل الجلوس على صفائح كان الموقوفون قد حولوها الى مقاعد للجلوس. قال موزع الشاي وهو معتقل أيضا:

- إنني أفضل من يعد الشاي هنا.

علق سلام ضاحكا:

- إنه يدعي ذلك حتى يتجنب الأعمال الأخرى كالطبخ وغسل الأواني والكنس.

ضحك موزع الشاي أيضا وقال:

- لا ترتعب أيها الزميل الجديد. سوف تجرب هذه الأعمال بنفسك.

امتلأت غضبا من هذه النكتة البائخة وجاهدت لأتمالك نفسي. كيف يسمح هذا المخلوق الذي لا أعرف أي جريمة

نكراء ارتكبها لنفسه أن يتحدث عني هكذا؟ حسنا، إنه يريد أن يجعل مني عامل مقهى او مطبخ، ولكن ذلك لن يحدث أبدا. لقد ارغمت على الإعتقال بدون ذنب، وعليهم أن يعرفوا ذلك.

*

كنت أجلس هناك في مقدمة المقهى، أراقب المارة في الشوارع. فقد جئت من كركوك الى بغداد لقضاء إجازتي بعد سنة شاقة من العمل. كنت أفكر في الحصول على عاهرة تقبل أن تأخذني معها الى البيت لننام معا حتى الصباح. كنت أحلم بليلة سعيدة، بيد أن هذه الليلة ظلت حلما في الرأس، قتل قبل أن يتحقق. كان يوسف، وهو موظف يشاركني الغرفة التي أعمل فيها قد أخبرني بأن مقهى "مدينة الليل" يغص بالقوادين. لا تسأل أحدا. إجلس فقط واطلب شايا. عند ذاك سوف يتقاطرون عليك، مقدمين عروضهم السخية. كنت أموت الى المرأة ولذلك جلست هناك لأكثر من ساعتين، بدون أن يتقدم مني أحد. كنت في الحقيقة مستعدا أن أجلس ساعات أخرى لأحصل على امرأة تضيء في قلبي المعذب ظلام سنة كاملة من العمل المرهق في المكتب. لقد انتظرت طويلا بدون أن يحدث ما

يلفت انتباهي. مرة واحدة فقط رأيت رجلا بين الجالسين يحدق في، فابتسمت له، الا أنه أشاح بوجهه عني فخجلت من نفسي. لكنني صمدت منتظرا وصول القوادين الذين سيمهدون لي الطريق الى سعادتي الليلية. فجأة رأيت نفسي محاصرا بالشرطة الذين أحاطوا برواد المقهى. سحبني شرطي من ياقة قميصي وقال لي:

- تعال هنا أيها الفأر البطل.

حاولت أن أقول شيئا ما أدافع به عن نفسي، ولكن الكلمات جفت في حلقي، إذ ماذا يمكن أن أقول في مثل هذا الموقف الحرج. صفعني شرطي آخر بقوة وقال لي:

- لقد عرفته، إنه واحد منهم.

كان رواد المقهى قد تحلقوا حولنا فيما حاول آخرون مغادرة المقهى من الباب الآخر، الا أنهم اعتقلوا هم أيضا قبل أن يفلحوا في الإفلات من أيدي رجال الشرطة. للحظات فكرت مع نفسي أنهم يعتبرونني قوادا. يالبؤس حظي! ماذا يمكن أن أفعل لأنفذ بجلدي من هذه الورطة؟ هل أخبرهم أن كل ما كنت أريده هو الحصول على عاهرة؟ حاولت أن أقول شيئا، لكن شرطيا ما جرني وقذف بي داخل سيارة كبيرة مع أشخاص آخرين. وانطلقت بنا

السيارة بدون أن ندفع حتى ثمن الشاي الذي كنا قد تناولناه.

*

كان الليل يملأ المعتقل. انسحبت من مقهى المعتقل ضجرا متجها الى فراشي في الغرفة السوداء الواسعة الواقعة جوار المطبخ. كان ثمة معتقلان يلعبان الشطرنج وآخر يقرأ وهو متكئ على الجدار بينما كان صبي في الثامنة عشرة يكتب شيئا ما، ربما كان رسالة، على وسادته التي جعل منها منضدة للكتابة. فكرت أن أفضل ما يمكن أن أقوم به في هذا الليل الجديد الذي قد يتكرر كثيرا هو أن أراقب هؤلاء الذين أرغمت على مصادقتهم. لم يكن ثمة خيار آخر أمامي. إنني موجود بينهم، وهذا يعني أن أربحهم الى جانبي، ولكن لا ينبغي لي أن أنسى لحظة واحدة مسألتي الأساسية وهي العمل على مغادرة المعتقل في أقرب وقت ممكن. فثمة ما ينتظرني في بغداد – نزهات الشوارع واصطياد امرأة تشعرني بوجودي الملغوم بالموت لليلة واحدة على الأقل، ومن ثم العودة الى كركوك لمواصلة عملي الرتيب. لن أبلغ والدتي او أحدا من أفراد عائلتي باعتقالي. سوف يزعجهم كثيرا أن يكتشفوا الألم الذي يملؤني. وإزاء

كل ذلك لن يقدموا لي شيئا سوى المزيد من الدموع التي لم أكن أحتاجها. إتكأت، ضاغطا ظهري على الجدار بقسوة متعمدة وجعلت رجلي تطولان فوق بطانيتين تفوح منهما رائحة الغبار والأسفنيك. نهض الصبي الذي كان يكتب وعبرني كما لو انه يعبر جثة مقذوفة في العراء. لم ينظر الي أما أنا فقد حدقت في رقبته المرمرية تحت ضوء المصباحين المعلقين على جدارين متقابلين. شاهدته وهو يعبر البوابة المفتوحة على الساحة. لابد أنه مل الكتابة والجلوس في غرفة لم تكن غرفته. فقد كانت غرفة الجميع وغرفة لا أحد.

سمعت أحد لاعبي الشطرنج يقول:

- لقد خسرت هذه المرة أيضا.

- أجل إن الخسارة تتكرر، ولكنني لم أفقد الأمل في الكسب. إن الخظ معك دائما.

- ولكنني ألعب بصورة أفضل.

- هيا نغادر هذه الغرفة اللعينة.

عندما مرا بي التفتا الي. قال لي أحدهما، وهو شاب في حوالي الخامسة والعشرين، وسيم بعض الشيء:

- كيف أنت أيها الزميل؟

- اوه شكرا.

- هيا تعال معنا ولا تفكر كثيرا لوحدك، فان كثرة التفكير تضر بالمعدة.

ضحكت وقلت له:

- شكرا، سوف ألحق بكما بعد قليل.

جاهدت أن أمنع نفسي من التفكير في عالم الآخرين، ذلك العالم الذي كان يبدو لي لغزا محيرا لا أفهمه تماما ولذلك حاولت أن أحرم نفسي منه. كان يبدو لي أشبه بحلم لا ينبغي لي أن أتشبث به طويلا. ولكي تكون لي قضية أعيش من أجلها وجدت سعادتي المفتقدة مع نفسي. كنت أخلو الى نفسي ساعات طويلة في اليوم. فمنذ زمن اعتدت النوم في النهار والسهر في الليل حيث لا يكون ثمة من يقتحم عليّ عوالمي الخاصة بي. وعندما كان البعض يجسر على القفز فوق سياجاتي التي أقمتها حولي كنت أمتلىء غضبا وأصر على أسناني، كاظما غيظي حتى لا أفضح سري لأحد. كنت أجلس وأنظر الى اللاشيء وأفكر في الطرق التي يمكن أن أخرب بها هذا العالم الملتبس. كنت أقول لنفسي: ترى لماذا يتوجب علي أن أقبل بهذه الأخطاء؟ ولكن ماذا يمكن أن يفعله سجين مثلي، بعيد عن أهله، يرتدي بيجاما ممزقة، ولا يملك حتى اضبارة خاصة به في سجلات الشرطة؟ ومع

ذلك لم أشعر بأي عار، ولم يكن العالم الذي أعيش فيه قادرا على أن يشعرني بأن ثمة عارا يخصني. كان العار يجلل في الحقيقة هام العالم نفسه، عار صمته وقسوة نسيانه إزاء عواطف من كانوا يموتون بصمت.

عندما أخذت من المقهى قسرا هددني الشرطي الذي يجلس لصقي، قائلا:

– لقد أفسدتم العالم، ولا بد من أن تدفعوا الثمن.

تساءلت من نفسي: هل أنا مسؤول حقا عن فساد العالم؟ الخطأ موجود منذ الأزل. ثمة خطأ أساسي في هذ العالم لا أتحمل مسؤوليته. وكنت أعرف جيدا أن الشرطة أيضا غير مسؤولين عنه. الساسة والعلماء كذلك. كنت أعرف أن العالم قائم على خطأ خفي، ولكن ما كان في إمكاني إدراكه.

سألت الشرطي ببراءة:

– ولكن ما الذي فعلته لأستحق الإعتقال؟

أجاب:

– ألا تعرف؟ حسنا سوف نجعلك تخبرنا بذلك بنفسك عندما نصل.

بدا لي جواب الشرطي محيرا، إذ لم أكن متأكدا حتى تلك

اللحظة فيما إذا كنت أكره السلطة أو أحبها. لم تكن السلطة قضيتي. كنت متأكدا من أمر واحد فقط وهو أنني لست قوادا. وكان أسوأ ما في الأمر هو أنني لم أكن أعرف إن كنت قد اعتقلت بتهمة كوني قوادا او مناضلا مقاوما للسلطة.

قلت لنفسي: لا بأس، لا يمكن لي أن أظل محجوزا الى الأبد. لا بد لي من أن أتحرر وأعود الى عملي، فأنا لا أريد أن أتسكع في الشوارع مرة أخرى، تعصف بي رغباتي المجنونة.

مددت ذراعي الى الأمام ونهضت، متسللا من غرفة الجميع الى الليل الذي ينتظرني في الساحة مع الشابين اللذين كانا يلعبان الشطرنج قبل برهة.

الفصل الثالث

- إن الثورة تنتصر. فالإرهاب الذي يشنه الأعداء ليس سوى الوجه الآخر للمقاومة. صحيح اننا الآن أسرى ولكن ثمة احتمالا كبيرا في انتهاء كل ذلك قريبا. ينبغي ألا ننحني أمام العاصفة. أن نقاوم، هذا هو ما يريده شعبنا منا في هذه المرحلة الصعبة.

توقف سلام عبدالله الذي يقيم في الغرفة الصغيرة الثانية الواقعة الى اليسار مع بعض المعتقلين الآخرين. كان الجميع ينصتون اليه برهبة واحترام. لابد أنه مثقف سياسي كبير. ولكن ما الذي يهمني من كل هذا؟ إنني أكره الألعاب السياسية ومع ذلك شعرت بود لهذا الرجل النحيف. كنت أنصت فقط. طلبوا مني أن أحضر اجتماعا وقيل لي إن شخصا ما يريد التحدث الينا. جلست مع الآخرين أدخن، مستمتعا بالجو الإحتفالي الذي كان يسود المكان. ليس ثمة ما أخسره. إنني أنصت جيدا. هذا ما يريدونه، أما ما أريده أنا فهو أن أبتعد عن هذه القلعة الحجرية، حيث يقف الخفراء ببنادقهم على الأسوار، مرسلين الينا ابتساماتهم الأخوية ونحن نقذفهم بين فينة

وأخرى بالبرتقال والتفاح وأحيانا بالنقود.

– لسنا وحدنا هنا، إن شعبنا كله يقف الى جانبنا. إنه معنا في الليل والنهار، وحتى داخل غرف التعذيب.

يا للبهجة! لم أكن قد انتبهت من قبل الى ذلك. هل يقف الشعب الآن الى جانبي في وحدتي؟ في حزني؟ في أملي؟ ولكنني لست سياسيا. كل ما في الأمر هو انني جلست في المقهى أكثر من ساعتين بانتظار العثور على قواد ما، ثم اعتقلت. وهذا كل ما في الأمر.

التفت الي سلام وسألني:

– هل كان التحقيق معك شديدا؟

– لم يحققوا معي، لم يتحدث أحدِ معيَ بعد اعتقالي.

– ليس هذا أمرا مستغربا.

قلت موضحا:

– كنا أربعة، وقد طرحوا بعض الأسئلة على الثلاثة الآخرين. ثم حدث فجأة شيء ما، شيء ربما كان مهما، فأسرعوا بإعادتنا الى الموقف الذي كنا فيه. ثم نقلوني الى هنا بعد يومين من ذلك. لا بد أن ذلك حدث خطأ. حاولت أن أثير انتباههم الي فرحتُ أصرخ مؤكدا براءتي ومطالبا بإخراجي او التحقيق معي على الأقل. لكن أحد المحققين

انزعج من صراخي فبصق في وجهي وقال لي "لا وقت لدينا لشخص تافه مثلك". لم يضربني أحد، ما عدا كناس ريفي يعمل هناك، إذ فاجأني وأنا أدخل الموقف بركلة على مؤخرتي فيما أغرق الخفراء في الضحك.

قال سلام عبدالله موضحا:

– لقد جاؤوا بك مع موزعي المنشورات. هل كنت واحدا منهم؟

– كلا، كنت أجلس في المقهى عندما داهم الشرطيون المكان. لا أعرف إن كانت قد وزعت أي منشورات حقا مثلما لا أعرف لماذا اعتقلت، إذ لم يسألني أحد شيئا. كل ما في الأمر هو أن أحد الذين اعتقلوا معي في المقهى قال لي فيما بعد إن أشخاصا وزعوا منشورات معادية للحكومة. ولكنني لم أكن واحدا منهم.

– لا يهم، لا يهم، ثمة أبرياء كثيرون هنا.

– ولكنني لست سياسيا. لماذا يعتقلون شخصا مثلي؟

ابتسم سلام وقال لي، مخففا من وطأة الأمر علي:

– هذا صحيح، ولكن المهم هو أن تتعود على الحياة هنا اولا. وما دمت معنا ستكون واحدا منا في كل شيء حتى تغادر هذا المكان. لايهم أن تكون منتميا. كل ما في الأمر هو

أننا نواجه ظرفاً شاذا، لا ينبغي لنا أن نسقط أمامه. ينبغي أن نحافظ على إخائنا الإنساني وننتظر.

*

الإنتظار. هذه الكلمة القاسية التي تهبط في القلب كحربون ذي طرف حاد. ها أنني أرى نفسي كما يرى الممثل السينمائي نفسه على الشاشة مع الجمهور. ثمة غربة مع نفسي. إنني مفتقد بشكل ما، لقد أفلت مصيري من بين أصابعي كما تفلت السمكة من يد الصياد. ربما لم أكن صيادا ماهرا. ولكن هل كنت أملك حرية اختيار الصياد؟ لست سوى سمكة صغيرة داخل شبكة الخراب. وها أنذا أتخبط، باحثا عن ثقب يؤدي بي الى النهر الوسيع الممتد الى الأبد، مملكتي التي لا أكون موجودا بدونها. إنني أخطو في الفناء الترابي، وحيدا. مدمن على التفكير والمراقبة. ترى أي عدالة قذفت بي في هذا المعتقل السياسي؟ أتراني كنت مذنبا حقا دون أن أعي ذلك؟ لا بد أن الله عبر عن استيائه إزائي بطريقة ما لأنني ذهبت الى المقهى، طامحا في الحصول على عاهرة. لقد عاقبني الله إذن على نياتي المبيتة التي لم أفصح عنها لأحد. أنظر الى قدمي تتحركان صوب جدار سرعان ما ارتطم به، ثم

أنحرف عائدا مثل حمار أعمى لأرتطم بجدار آخر في نهاية الفناء. ليس ثمة سبل أخرى سوى هذه السبل الممنوحة لي بسخاء ليل نهار – حمدا لله انني ما زلت قادرا على أداء هذا الدور الذي لا خيار لي إزاءه. إنه أفضل ما يمكن أن أقوم به على أي حال. ها هو الشرطي الذي يقف أمام غرفته الخشبية على مسرى السور يراقبني ويبتسم لي. أبتسم له: يا إلهي كيف يمكن للمرء أن يكون شرطيا! لطالما فكرت في أن أكون أي شيء في الدنيا سوى أن أكون شرطيا. ولكن هذا الشرطي الذي يراقبني ببندقيته يبدو سعيدا جدا. إنه مطلق السراح، وهذه مزية كبرى. كنت أتنزه داخل قفص مغلق فيما الشرطي يبتسم بعذوبة لا أملكها.

*

طوال الظهيرة جلست على مقربة من الحديقة أحدق في المعتقلين الذين كانوا منكبين على غسل أواني الطعام المتراكمة كما لو أنهم في سفرة لا نهاية لها. لم يطلب مني أحد بعد القيام بأي عمل. كل ما في الأمر هو انني أتناول طعامي مع أربعة زملاء آخرين، نشكل جماعة واحدة. كان بعضهم يتولى جلب أواني الطعام النحاسية ويرجعها بعد ذلك. وهكذا أمضيت الكثير من وقتي، مستمتعا بمراقبة

الآخرين. لايملك السجين الا أن يغرق في التفكير، بيد أن التفكير في المعتقلات يعتبر عادة سيئة. إنه قد يؤدي الى انهيار الروح وأمراض أخرى في المعدة والرأس. ولذلك كان المعتقلون يحاربون هذه العادة المقيتة بوسائل شتى. فعندما تكون متكئا على الجدار او مضطجعا على فراشك يقترب منك أول شخص يشاهدك ويتعمد الدخول معك في حوار طويل حول أي قضية، مهما كانت تافهة. ولكن هناك وسائل أخرى تساعد المرء على النسيان: لعب الشطرنج مثلا او تعلم احدى اللغات الأجنبية او التبرع للعمل في المقهى او المطبخ. ولكن أيا من هذه الوسائل لم تكن لتهمني، فقد كنت أريد أن أكون مع نفسي دائما، أحلم بطريقة تشعرني أنني أخلق عالما خاصا بي، لا سطوة لأحد عليه.

وإذ أراقب هؤلاء المنكبين على العمل، هؤلاء الذين يواصلون حياتهم في السجن برضى يحسدون عليه، كنت أفكر في الشوارع التي تحيط بالمعتقل، بكل الناس السعداء الذين لم يجلبوا خطأ الى السجون. يا للحظ الأجوف عندما أكون أنا، هذا المتكيء الأخرس على جدار مغبر، الرقم الخطأ الذي يؤخذ مغلولا الى المعتقل من بين مئات ألوف الناس، بدون مقاومة وبكل سهولة! وتساءلت مع نفسي

عما إذا كانت العدالة قد وجدت في أي وقت في هذا العالم الغريب. ولكن العدالة لم تكن بحاجة الى أحد حتى تسفر عن وجهها وتتبدى للعيان. فقد كانت موجودة في رأسي، في وجهي، وفي قلبي: إنها أنا بالذات، أنا الباحث عن الخلاص وسط وليمة الدم. إن أغرب ما في الأمر هو أن العدالة لا تجد نفسها الا في اللاعدالة. فقد كنت أريد أن يعيدوا الي اعتباري، أن يعتذروا مني وأن أخرج الى العالم الذي افتقدته دفعة واحدة. ولكنهم لو فعلوا ذلك لظننت أن العدالة موجودة حقا على الرغم من كل الصراخات التي أسمعها عن العدالة المقتولة في حضارة القطيع الجديد، حيث الجميع نعاج ضالة.

امتدت يد نحيفة، أشبه ما تكون بغصن شجرة الى وجهي، وهي ترفع بين أصابعها سيجارة. رفعت رأسي كما لو انني أنهض من حلم عميق. أخذت منه السيجارة. أشعل لي عود ثقاب. إنه واحد من الذين تعرفت عليهم في المعتقل مؤخرا.

لم أكن أشعر إزاءه بود ومع ذلك كنت أحتاج اليه مثلما احتاج الى هذا الجدار الذي يسندني، هؤلاء الذين

يبتسمون في وجهي وهم ينظفون القدور بجدية أفتقدها. ترى لماذا يتعبون أنفسهم كثيرا؟ لم أكن أختزن أي جواب مقنع تحت لساني ومع ذلك فكرت أنهم جعلوا من المعتقل بيتهم الذي أضاعوه. كان بيتهم، لا بيتي.

جلس على مقربة مني وقال:

– لقد جلبوا ثلاثة أشخاص جدد.

– أين هم؟

– إنهم في الإدارة وسيدفعون بهم الينا بعد قليل.

– يا للتعاسة!

– هيا نذهب لنلقي عليهم نظرة من فتحة البوابة!

– لا أريد ذلك، سوف نراهم بعد قليل.

اهتزت الشجيرات بعض الشيء في الريح فيما حلق عصفور رمادي منقط بالسواد في فضاء مرتفع على شكل مستطيل ثم حوم فوق غرفة الحراسة على السور، هابطا على نتوء خشبي بارز، قريبا من فوهة البندقية المسندة على جدار الغرفة. لم يكن الشرطي موجودا. وكانت ثمة أصوات آتية من الجانب الآخر للسور. ربما كان الحارس يلقي هو الآخر نظرة على المعتقلين الجدد الذين كان بعض

الحراس يدون أسماءهم في القائمة. كان المعتقلون العاملون في المطبخ قد انتهوا من غسل أواني الطعام لتوهم وتفرقوا فرحين، ضاحكين. قفز العصفور الى الجانب البارز من النتوء وظل هناك قليلا ثم هبط فوق فوهة البندقية كما لو انه وردة من رماد. شعرت أن البندقية قد تغيرت كثيرا. لم تعد سلاحا للقتل، لم يعد لونها القهوائي المدهون يخيفني. بدت كما لو انها لعبة بيد طفل يلعب على ساحل رملي وسيع. لا ريب أن هذا العصفور المنقط بالسواد يشعر الآن ببرودة الحديد الذي يجثم عليه. سمعت من بعيد عواء بوابة القلعة وهي تفتح. لقد جاء المعتقلون الجدد. أجفل العصفور وطار أما أنا فقد شعرت بحزن عميق.

*

كنت أتنزه في فناء القلعة عندما سمعت صراخا عاليا عند البوابة. كان اسمي. إنهم ينادون علي. فكرت بسرعة، لابد أنهم جاؤوا ليطلقوا سراحي أخيرا. مغفورة خطاياهم إذا. كل ما أحلم به الآن هو أن أغادر هذه الأسوار المقبضة للنفس.

قال لي أحد الواقفين على مقربة مني، منبها:

- إنهم ينادون عليك، هيا اسرع!

غمرني فرح طاغ عندما وقفت أمام الحارس الذي جاء يناديني. لم أعد أشعر بالوجوه. لقد تحول الجميع الى كتل متراصة. كنت أسمع بدون انتباه جملها الفائضة وكلماتها المبعثرة.

قال لي الشرطي:

- هل أنت عزيز محمود سعيد؟

- نعم أنا هو.

- حسنا تعال معي.

قال أحد المعتقلين:

- لابد أن أحدا ما جاء لزيارتك.

قال آخر:

- ربما سيفرج عنه.

إبتسمت وأنا أغادر البوابة لأول مرة منذ دخولي المعتقل. لم أكن أنتظر أحدا. فما من أحد من أصدقائي او أهلي يعرف مكاني. لا بد أنهم يريدون أن يحققوا معي. قال لي الشرطي:

- لقد طلبك المأمور.

عندما دخلت الى الغرفة حدق المأمور في وجهي مليا ثم

سألني:

- هل أنت عزيز محمود سعيد

- نعم، أنا عزيز محمود سعيد.

- إذن اسمع، لقد أحلنا عريضتك الى الجهات المسؤولة. لا تكرر ذلك ثانية. لا يهمنا إن كنت بريئا او مجرما كبيرا. كل ما في الأمر هو أنهم أرسلوك الينا، وعلينا الإحتفاظ بك حتى يتقرر مصيرك. هل فهمت؟

- نعم.

- والآن تستطيع العودة الى قلعتك.

حدقت في عينيه قبل أن أغادر الغرفة، شاعرا أن فيهما شيئا لا أعرف كنهه. ثم فجأة فكرت، لابد أن العصفور الآن قد عاد مرة أخرى الى فوهة البندقية. من الشارع الخارجي القريب سمعت عويل الريح بين فروع الأشجار.

الفصل الرابع

إحتجت الى شهور طويلة حتى أدرك أنني معتقل. فقد انتهت أحلامي فجأة واستيقظت كما استيقظ زرادشت بعد غفوة طويلة لأكتشف بكل قسوة ومرارة أن العدالة قد لا تكون دائما الى جانب البراءة، بل أنها تتعمد أحيانا أن تكون في الجانب الآخر، حيث يكثر الضحايا والشهداء: إن هذا يعني شيئا واحدا في المطاف الأخير هو أنني يمكن أن أتعفن داخل هذا المعتقل بدون أن ينتبه أحد الى وجودي. وبدا لي أنهم قد لا يطلقون سراحي حتى إذا اكتشفوا خطأهم تجاهي. وشعرت أنني قد نسيت تماما.

قال لي سلام وهو يجلس جنبي في الغرفة:

- إن الإفراج عن أي واحد منا يعتبر قضية سياسية، وهذا يشملك أنت أيضا.

- ولكنني لست سياسيا.

- لا يهم ما تعتقده أنت. المهم ما يعتقدونه هم.

لابد أن سلاما على حق. لابد أنه يعرف حقيقة الوضع الذي نعيشه الآن. قلت محتجا:

- ولكن أي عالم هو هذا! إنه عالم مليء بالأخطاء

والجرائم.

شعرت أن كلماتي هذه قد أثارت سلاما. إحتقن وجهه المحمل بعذابات أكثر من خمسة وثلاثين عاما، ثم ربت على كتفي برفق وقال:

- هيا نتمشى قليلا في الساحة.

عندما انتصب واقفا فكرت، لكم هو نحيف! كان يشبه تمثالا من تماثيل جياكوميتي الذي قرأت عنه مقالا أدهشني قبل أيام في مجلة قديمة وجدتها في القاعة، ومع ذلك كان يوحي الى المرء بأنه أكثر امتلاء وحيوية وقوة من الجميع. إنه يقف مثل شجرة تتعالى، مظللة كل اؤلئك الذين يقفون على أرض لا قرار لها. كنت معهم ألوح بقميصي الذي أرفعه عاليا في ليل السفن التي تعبرني إذ يتحول صوتي الى صراخ جاف فوق جزيرة صغيرة (القلعة الخامسة - ٦ أمتار × ٢١ مترا)، ولكن ليس ثمة من يرتقي خشبة الأفق ويمعن في عذاب كائن لا يريد أن يتنازل عن سعادته. فقد اعتقدت طوال حياتي أن السعادة الحقيقية، حتى السعادة العابرة، هي العدالة في هذا العالم. كل فرح مهما كان صغيرا هو اقتراب من العدالة.

- إن البحث عن العدالة، حيث القتال الشرس مع

الأعداء يعد تنازلا أمام التاريخ. العدالة الوحيدة الممكنة هي أن نكسب هذه الحرب.

– لست جنديا في هذه الحرب التي لم أفكر فيها أبدا. ولطالما خيل الي أن الناس يختلقون مثل هذه الحروب حتى تكون عندهم قضايا يتحدثون عنها. أما أنا فقد اعتدت أن أقول لنفسي: إن الجميع على صواب. لا بد أن لهم أسبابهم التي تدفعهم لشن هذه الحروب.

– هذا صحيح بشكل ما. إن للجميع أسبابهم، ولكن ينبغي أن نفهم هذه الأسباب.

– إنهم مقتنعون.

– عندما نمحق الأسباب تختفي القناعات. وحتى يتحقق هذا الحلم يظل اعتقالك ضروريا مثل أي ضحية تسقط صدفة، مثل أي كأس زجاجية ترتطم بأرض صلدة وتتفتت. قد نأسف عليها لأنها كانت مفيدة بشكل ما، ولكننا لا نفكر في العدالة أبدا.

*

ثمة شبكة عتيقة بعض الشيء، ذات لون حائل الى الرمادي، مشدودة الى مسندين خشبيين يقسمان الساحة الى شطرين غير متساويين. وفي الجانبين، وعلى أرض

ترابية غير مستوية تماما كان بضعة أشخاص بالبيجاما والفانيلا وآخرون بملابسهم الداخلية فقط، بينهم فتى عاري الصدر يتقاذفون الكرة عبر الشبكة، حيث يعبر صراخهم القلعة الى القلاع الأخرى، وربما أيضا الى الشوارع الجانبية القريبة من المعتقل.

وعلى أطراف هذا الملعب المؤقت توزع عدد من الرجال يمارسون مختلف الهوايات الخاصة بهم. إنه يوم رائع جدا، فقد انحدرت الشمس وراء السور الذي كان يقع الى يسار المدخل، بينما ظلت الريح الهادئة تهب، عابقة بأريج الأشجار. وكان يجلس تحت مكبر الراديو تماما مصطفى، وهو عجوز ذو هيئة وحشية وسحنة غامضة، يحوك محفظة يد من النمنم الدقيق الملون. إن يديه تتحركان بصورة آلية فيما كان هو الجالس المتوحد على ملاءة منبسطة يبتسم بين آونة وأخرى للاعبين السيئين ويعلق بصوت عال بدون أن يثير انتباه أحد اليه. وفي الوقت ذاته كانت الأغاني التي يذيعها الراديو تجعله يهتز يمنة ويسرة بلحيته البيضاء كما لو انه قارب منحدر نحو الجرف.

كان اللاعبون الرديئون يطلقون صيحاتهم الحماسية. وأمام المراحيض في نهاية الساحة تحلق بضعة أشخاص

منتظرين دورهم فيما كان موزع شاي جديد يطوف على المعتقلين المتوزعين في كل مكان من الساحة والغرف. وفي الفضاء الأزرق كانت ثمة غيوم بيض تتكسر، مشكلة أشكالا مختلفة. وتحت الغيوم عند السور كان يقف شرطي مرح يشجع اللاعبين في غفلة من الإدارة التي لاترتضي ضحكاته الودية. أما أنا فقد كنت جالسا على الأرض الصلدة باتجاه الأعمدة الخشبية، في الوسط تماما، أنظر الى اللاعبين وهم يتقافزون مثل حيوانات مؤنسة في غابة. وعلى فترات متقطعة كنت أسمع عويل الباصات الضخمة وهي تتوقف في محطاتها. وقد انتابني هاجس غريب هو انني في احتفال مستمر. وعلى مبعدة من اللاعبين لمحت سلاما يقف حانقا، والشرر يتطاير من عينيه، فأدركت أن ثمة خطأ في الأمر. ولم يخب ظني، فقد صرخ سلام فجأة وبطريقة هائجة، جعلت الجميع يلتفتون اليه:

– أوقفوا اللعب!

اتجه نحو أحد اللاعبين وجره الى خارج الملعب:

– من الذي سمح لك باللعب؟

تساءل يوسف، وهو شاب في الثالثة والعشرين من

عمره، مرتجفا:

– ماذا في الأمر؟

– إننا لا نسمح للجبناء باللعب مع رفاقنا.

– لست جبانا.

– إخرس والا أرسلناك الى المستنقع.

أجهش يوسف بالبكاء وانسحب، مختفيا في إحدى الغرف. نهضت وتبعته. شعرت بألم قاتل. كيف يمكن للضحية أن تنقلب جلادا؟ كان الشاب يجلس في زاوية من الغرفة هادئا وغاضبا كما لو انه جثة خرجت لتوها من المقبرة. جلست لصقه وقلت:

– إنني آسف لما حدث. لقد ارتكب سلام جريمة لا يمكن لي أن أغفرها له.

نظر الي يوسف وقال:

– لا ينبغي أن تفكر في هذا الأمر. إنه لا يخصك.

– ولكنه يخصني.

– سوف تطرد إذا.

– لايهم.

– حسنا، ينبغي أن تعرف الحقيقة. إن سلاما أراد أن يهينني بسبب الرأي الذي أبديته في المحكمة. إنني أواجه

مثل العديدين صدور حكم شديد ضدي. لست خائفا حتى من الموت. كل ما في الأمر هو انني أردت أن أكون متسقا مع نفسي وأفكاري. لقد سألني الحاكم عما إذا كنت أؤيد جرائم القتل كأسلوب سياسي. غير أنني بدل أن أردد الصيغة التي فرضتها القيادة علينا "لا رأي لي في الموضوع ولا أعرف شيئا عنه" أوضحت أنني لست مع الجريمة وأن كل جريمة مهما كانت مبرراتها يجب أن تدان. لم أكن خائفا. كنت أريد أن أقول ما أعتقد أنه صائب.

دخل موزع الشاي ورمقني بحقد ثم قال لي:

– لقد طلبك سلام. إنه يريد أن يتحدث معك.

فكرت ألا أذهب إليه، الا أن يوسف قال لي:

– هيا اذهب.

– لا أطيق رؤية وجهه.

– سيكون ذلك خطرا عليك. هيا اذهب ولا تدافع عني.

عندما نهضت حدق في وابتسم قائلا:

– أرجوك.

*

قال لي سلام:

– إنني حزين مثلك لما حدث. ولكنه ضروري. ينبغي أن

نكون صارمين والا انتهينا. إن قوتنا تكمن في مواقفنا الشجاعة التي لايمكن أن نفرط بها.

ترى ما الذي يمكن أن أقوله؟ كان ثمة آخرون يجلسون على مقربة من سلام. إنهم يعبرونني بنظراتهم. لا بد أنهم يفكرون في شيء ما. هل ارتكبت أنا الآخر جريمة ينبغي أن أعاقب عليها. ولكن ما الذي يهمني، أنا السجين بلا ذنب، أنا الذي لا أنتمي اليهم الا لوجودي بينهم. وكان سيان عندي أن أكون معهم او في أي مكان آخر ما دامت حريتي معلقة على طرف حبل لا أعرف امتداده الحقيقي.

قلت بشيء من الجرأة:

- لاأريد أن أتدخل في أموركم، ولكنني كشخص لا يفقه كثيرا في السياسة شعرت أن الطرد العلني أمام الجميع عقوبة قاسية قد تدفعه الى موقف أسوأ مما هو فيه الآن.

ابتسم سلام ساخرا:

- لا يهمنا أن نخسر الجبناء. كل ما نريده منك هو أن تبتعد عنه وأن تتجنبه. الجميع سيقاطعونه. لن يجد من يتحدث معه. نريده أن يشعر باحتقار كامل لموقفه في المحكمة. وإذا ما غير رأيه في الجلسة القادمة فقد يختلف تعاملنا معه.

- أنت تطلب منه المستحيل. هل ينبغي له أن يقول للمحكمة، معذرة لقد أخطأت في المرة السابقة فيما يتعلق برأيي بجرائم القتل السياسي، فأنا لا أدينها لأنني لا أملك رأيا حولها. هذا منتهى الجنون، كما أنه قاس، قاس جدا.

رد سلام ببرود:

- كلنا نعامل بقسوة. ألم تجلب من المقهى الى المعتقل بدون ذنب؟ لا يتعلق الأمر هنا بالرأي، إذ أن آخر ما يهمهم هو الجواب ومعناه، وإنما بإذلال كل من تقوده الأقدار الى محاكمهم. ينبغي أن نواجه القسوة بالمزيد من القسوة.

*

لكم يبدو هذ الليل جميلا سوى انه لم يعد جميلا بالنسبة ليوسف الذي تقرر نقله الى المستنقع. والمستنقع غرفة متهدمة كانت فيما مضى مستودعا مهجورا الا أن المعتقلين حولوها فيما بعد الى معتقل داخل المعتقل نفسه، لا يفتح بابه الا ثلاث مرات في اليوم ويقدم الطعام لساكنيه من كوة صغيرة في الباب مثلما لايحق لأحد التحدث معهم. وكان يذهب عادة الى هذه الغرفة التي تقع إزاء المراحيض الخونة والمندحرون، حسب التعابير الشائعة عند نزلاء المعتقل. لم يعترض يوسف عندما نقلوه الى هناك، إذ حمل

على كتفيه فراشه الذي ينام عليه وأمتعته الأخرى، صامتا مثل بحر هادىء. كنت واقفا على مقربة من غرفة المستنقع عندما مر بي يوسف. لكم وددت أن أبتسم له من بعيد، أن أشجعه، بيد أنه تجاهلني تماما وانضم الى زميليه الآخرين اللذين كانا مرميين في المستنقع. لم تكن غرفة المستنقع سرّا على أحد. فقد كانت حقيقة مقبولة حتى من قبل إدارة السجن التي كانت تفضل عدم التدخل في شؤون المعتقلين الخاصة لقاء وعد بالمحافظة على النظام والهدوء. بل أنها كانت تحبذ أن تظل بعيدة عن كل ما يثير المعتقلين الذين كانوا يشكلون مجتمعا خاصا له أجهزته ومحاكمه وإدارته. فهنا ينتهي العالم الخارجي ولا يعود سوى حلم في الرأس، شبيه بأحلام اؤلئك الذي يفكرون في السفر الى باريس ولندن او أي مدينة بعيدة أخرى.

في المساء جاءني عصام، موزع الشاي الذي كان قد انتهى من عمله لتوه وقال لي:

- إنهم غاضبون عليك.

أثارتني عبارة عصام فانتبهت اليه، مغلقا شريط أفكاري وسألته:

- من؟

- الآخرون.

- ولكن لماذا؟ ما الذي فعلته؟

- إنهم لا يعرفون شيئا عنك. يقولون إنك ربما كنت مندسا من قبل الشرطة. ومع ذلك لا تكف عن التدخل في أمورنا.

- هذا هراء وسخف.

- لقد تبعت يوسف بعد طرده وواسيته.

- لقد تجسست علي. كنتم أنتم أنفسكم تلعبون الكرة معه قبل لحظات من ذلك.

- كان ذلك فخا نصبناه له. كنا نريد أن نهينه أمام الجميع.

هممت أن أشتمه، ولكنني آثرت الصمت. حسنا، إنني لا أنتمي اليهم وربما لم يكن من حقي حتى أن أعبر عن رأيي. ومع ذلك شعرت أن كل ذلك ينبغي أن يتغير. كان صعبا علي أن أدرك كيف يمكن للضحية أن تجلد الضحايا الأخرى. ينبغي أن يتغير كل هذا، ينبغي أن أعمل على ايقافه. ولكن كيف؟ فكرت أن البؤس قد يكون قدر الإنسان في كل مكان، سوى أنه لا يهبط من السماء. إنه بؤسنا نحن، نحن البشر الموزعين في التاريخ كله.

طوال الليل ظللت أنحب مع نفسي، على البطانيتين اللتين لا تمنعان تحدبات أرض الغرفة من الإنغراس في مواضع شتى من جسدي. لم أعد أهتم بشيء. لم أعد أهتم حتى بإطلاق سراحي. إنني حزين للبشر كلهم، حزين حتى الموت، وكنت أسقط خطوة بعد أخرى في نعاس لانهاية له، نعاس القلب الإنساني.

الفصل الخامس

أسندت دفتري على الوسادة، مفكرا في كتابة رسالة مختصرة الى أمي التي كنت أعرف أنها ستصاب بصدمة إذا ما سمعت باعتقالي. ولكن لم يكن بد من ذلك. فان غيابي سيؤرقها أكثر. قد تعتقد أنني مت أو غادرت الوطن وتركتها لوحدتها، ما لم أبلغها بالحقيقة. وكنت قد فكرت أن أكتب رسالة أخرى الى أحد زملائي في المكتب الذي أعمل فيه، لكنني صرفت النظر عن ذلك، واثقا من أنهم سيعمدون الى التخلص مني بكل إباء لو علموا أنني ورطت نفسي في قضية سياسية. إنني أعرفهم جيدا، أعرفهم أفضل من أنفسهم. سأكون قصة يتحدثون عنها لنسائهم قبل النوم. أما اختفائي هكذا فجأة فلن يسبب لهم سوى الصداع. سيفكرون كثيرا، ألف مرة، ضاربين أخماسا بأسداس، بدون أن يتوصلوا الى نتيجة مقنعة. وعندما يطلق سراحي وأعود اليهم سأجد مبررات كافية لغيابي ولن يكون صعبا الحصول على إجازة اعتيادية او ترضية عن الأشهر التي أمضيتها في المعتقل.

إقترب مني منعم الذي ينام لصقي وقال:

- ماذا تكتب؟

- إنني أكتب رسالة الى أمي.

- وهل من الضروري أن تفعل ذلك؟

- أجل، ستكون قلقة.

- ولكنها لاتعرف. ذلك أفضل.

إبتسمت لمنعم الذي صار صديقي منذ أيام وأخذت أكتب:

والدتي العزيزة

أرجو ألا يقلقك غيابي. فقد اضطررت الى البقاء في بغداد قليلا. لن أتمكن من العودة الا بعد فترة، أعتقد أنها ستكون قصيرة. أما سبب تأخري وأرجو ألا تحزني لذلك فهو انني معتقل الآن. لقد حدث كل ذلك خطأ. وهم يعرفون الآن أنني لست الشخص الذي يريدونه. ولكن اطلاق سراحي قد يتطلب بعض الوقت. معي نقود كافية ولا أحتاج لشيء. كل ما أريده منك هو ألا تقلقي فأنا أعيش أياما سعيدة وجميلة. لا تتعبي نفسك في المجيء لزيارتي، فقد يطلق سراحي في أي لحظة. كما أرجو ألا تخبري أخي أحمد بذلك وخاصة انه كان يعاني من مشاكل نفسية شديدة في الآونة الأخيرة. أعرف أنك قوية جدا وقادرة على

مواجهة المشاكل بشجاعة ولذلك أكتب اليك.

مع حبي وتحياتي.

عزيز

بغداد – المعتقل – القلعة الخامسة

عندما انتهيت من كتابة الرسالة سألت منعم:

– هل عندك أم؟

ضحك منعم وقال:

– عندما يحين موعد المواجهة سأعرفك على أهلي.

– لا أحب العائلات كثيرا، فهي تذكرني بالسجن.

– سوف تغير رأيك هذه المرة.

كان منعم طالبا في الكلية يدرس الأدب الإنكليزي، اعتقل قبل حوالي شهرين لاشتراكه في مظاهرة للطلبة. إنه شاب في الثانية والعشرين يميل وجهه الى السمرة، أثار استغرابي بعدم اكتراثه لوجوده في السجن، حيث يواصل زملاؤه الآخرون دراستهم. كان هو الآخر أيضا يدرس في الحقيقة، ولكن على طريقته الخاصة. فقد كانت الكتب مكدسة قرب رأسه. وبدا لي أنه يحارب السجن بالقراءة.

عندما أخبرته بذلك قال لي:

– ليس السجن بالسوء الذي يتصوره الناس. إنه في الحقيقة فرصة نادرة لكي نخلو الى أنفسنا ونفكر بالحرية المفتقدة بين الناس. هل من الممكن أن تقرأ أكثر من كتاب كل يوم خارج السجن؟ إن ذلك أمر يشبه المستحيل. ولكنك في السجن تستطيع أن تقرأ أكثر من عشرة كتب في الأسبوع. إن الناس في عصرنا مستلبون تماما وغافلون عن أنفسهم. إن رتابة الحياة أشد قسوة هناك، حيث يقع الإنسان فريسة علاقاته المتكررة، أما في السجن فيمكن للمرء أن يستعيد كل فرص حياته الضائعة. آه، لطالما حلمت أن أغير حياتي بعض الشيء، أن أختفي مثلا. وفي الليالي حيث أكون وحيدا كنت أفكر في الإنزواء داخل كهف في غابة مثلما كان يفعل القديسون الأوائل. ولكن لم تسنح لي الفرصة أبدا لكي أفعل ذلك. في السجن وحده اكتشفت القدرة على تحقيق هذا الحلم. إنني سعيد حقا، سعيد بالفعل.

لقد أثارني منعم. إنه يبدو لي غريبا جدا، لا يشبه الآخرين. فإذ كان الآخرون يتحدثون ويتصرفون بطريقة ميتة ومقرفة كان منعم يثيرني بأفكاره ولغته وأفعاله الجديدة كل الجدة، مثل قارة تنهض من رماد مئات البحار

الراكدة. فرغم انه كان معهم الا أنه لم يكن منهم في الوقت ذاته. كانت أفكاره هناك، مع عالم آخر لا يقتل فيه الإنسان او يهان، مع الحرية الجديدة المتفجرة من عواطف أناس يواجهون الموت في كل لحظة. ولم تكن صورة الثورة في رأسه مشابهة للصورة التي يحملها الآخرون عنها. فقد كان ضد الجريمة مهما كانت مبرراتها. قال لي يوما ونحن نتنزه في فناء المعتقل:

– إن جريمة واحدة ترتكب يمكن أن تشوه كل جمال الثورة. إنني أحلم بثورة جميلة.

قلت له:

– ولكن لا بد من الخطأ.

نظر الي بحنق وقال:

– لقد بدأت تصبح واحدا منهم. لا خطأ عند الذين يعادون أخطاء العالم.

سكت قليلا ثم قال:

– هل تعتقد أن سلاما رجل يمكن الوثوق به؟

أجبت بتردد:

– لا أعرف.

– حسنا، إنني أعرف هذا النمط من الأدعياء، الأبطال

المتشنجين الذين لا يتوانون عن ارتكاب أي خطأ من أجل الحفاظ على هيمنتهم التي تملأ فراغهم الداخلي. ربما كان موقف يوسف في المحكمة لا يتفق مع موقف سلام، ولكن هذا لا يمنحه حق التشهير به وإسقاطه وتعذيبه مرة أخرى. إن سلاما لا يقل وحشية عن الحاكم الذي استجوب يوسف.

قلت:

– هل تعرف أن أفكارك هذه قد تؤدي بك الى المستنقع؟

ضحك وقال:

– ما من مستنقع أكثر عفونة من تبرير الجريمة. المستنقع لا يمكن أن يخيفني، ولكنهم لن يقدروا على إرسالي الى هناك. إنهم يفعلون ذلك عادة مع الضعفاء والعاجزين عن المواجهة. أما أنا فسيان عندي الموت او الحياة. ولذلك يفضلون تجنبي وإرضائي في الوقت ذاته.

– بدأت أضيع.

– إن الضياع هو بداية الطريق.

*

في اليوم التالي انتشر خبر مثير بين نزلاء المعتقل: أضرب أسرى المستنقع عن تناول الطعام. لم يكن أحد من

الموجودين يجرؤ على الإعلان علنا عن هذه الحقيقة التي قد تثير كثيرا من الإشكالات مع إدارة المعتقل رغم أن الجميع كانوا يهمسون بها. ما الذي يريده أسرى المستنقع؟ لا شيء سوى اخراجهم من قفصهم الثاني في المعتقل. فقد مرت على الإثنين الآخرين وهما حسين وسلمان أكثر من عشرين يوما بدون أي كتب او أوراق او حتى قطعة شطرنج. ولم يكونا قد رأيا الشمس طوال هذه الفترة سوى الفترات التي كان يسمح لهما فيها بالذهاب الى المراحيض ومن ثم العودة الى قفصهما الخرب.

كان سلمان عاملا في السكك، اعتقل بسبب نشاطه السياسي، أما حسين فقد كان معلما في إحدى قرى الجنوب، حيث اتهم بالتبشير بالأفكار الإلحادية بتحريض من أحد الإقطاعيين المهيمنين على القرية. وقد أرسله سلام الى المستنقع بدعوى نشر الأفكار الفوضوية. فقد وقف ذات مرة أمام المعتقلين وألقى خطبة جعلت المؤمنين بيوتوبيا المستقبل السعيد يرتعدون في أماكنهم: أعرف أن كثيرا من الناس يموتون شهداء من أجل الحقيقة، او ما يعتقدون أنه الحقيقة. ولكن هل هناك حقيقة حقا في هذا العالم؟ إنني أقول لكم، من أجل أن تدركوا الحقيقة ينبغي

أن تقفوا أمام العالم وتعفطوا لكل شيء، للحب، للأخلاق، للتاريخ وللشهداء أيضا. إن أي جبان، أي ساذج أي غبي يمكن أن يتحول الى بطل إذا ما أصابته رصاصة طائشة ومات. وليس الأخيار في هذا العالم سوى أذلاء أغبياء قانعين تعودوا أن يقولوا نعم حتى للأكاذيب. أما أنا فأبحث عن الرجل الذي يعرف أن خلاصه في هذا العالم مستحيل، ومع ذلك يقف شجاعا أمام الكون كله ويقول: لا.

وبعكس حسين كان سلمان جثة انسان منهار، لا يكف عن البكاء والتوسل الى الشرطة للعمل على اطلاق سراحه، لأنه إذا ما ظل في المعتقل فإن زوجته قد تتحول الى عاهرة. كان سلام قد تحدث اليهما مرات عدة في البداية، ولكن دون جدوى، إذ كان حسين يتميز بشيء كثير من الفوضى والصلافة في حين كان حسين منهارا بلا أمل في الوقوف ثانية على رجليه. وقد احتجزهما سلام حتى لا يؤثرا على معنويات الآخرين.

ذهب سلام ومعه عبدالكريم كاظم، وهو شاب قصير مفرط في السمنة يشبه برميلا متنقلا ويقيم في غرفة سلام نفسها، الى المستنقع. كان الصباح لا يزال في بدايته. أطل عبدالكريم من الهوة وقال:

- يريد سلام أن يتحدث اليكم.

أجابه صوت من الداخل:

- لا نريد أحدا.

تقدم سلام نحو الكوة وقال مخاطبا المحجوزين الثلاثة:

- إن سلوككم هذا يعبر عن منتهى السقوط.

جاءه صوت من الداخل:

- إننا نموت هنا.

- وماذا يمكن أن أفعل؟ لقد اخترتم مصيركم بأنفسكم.

- إن وجودنا هنا غير إنساني.

- إننا لم نفعل أكثر من حماية أنفسنا منكم.

إرتفع صراخ من الداخل يشبه العواء:

- إنني مريض، مريض جدا.

ثم انقطع.

كان المعتقلون قد تجمعوا وراء سلام بشكل هائج، يريدون التقاط الكلمات. عندما انتهى سلام من حديثه مع المحتجزين التفت الى المعتقلين المتجمهرين وطلب منهم التفرق. ثم عاد هو الآخر الى غرفته صامتا فيما ظل الآخرون يتحدثون عن مجموعة المستنقع كما لو انهم كلاب جرباء لا تستحق الرحمة.

*

في المساء دعت لجنة المعتقل (القلعة الخامسة) الى اجتماع يحضره الجميع لمناقشة الإضراب الذي أعلنه المحتجزون الثلاثة. فعلى الرغم من أن إدارة السجن كانت تفضل عدم التدخل في شؤون المعتقلين الخاصة لتجنب الماحكات الممكنة الا أنها لم تكن لتسكت فيما إذا استمر اضراب المنبوذين. احتشد المعتقلون في الغرفة الكبيرة التي تقع في الوسط. كان ثمة توتر ظاهر في الجو. وجوه محتقنة جاءت لتقرر مصير ثلاثة رجال آبقين. لم يكونوا قد اتخذوا بعد أي قرار حولهم، ولكن الموقف منهم كان قد تقرر ضمنا حتى بدون اتفاق مسبق. إنه الموقف الرمزي الذي يتشكل فينا جميعا بدون انتباه. ولكن ألم يكن في امكان سلام ولجنته التوصل الى حل ما بدون هذا الكرنفال المتوتر؟ لا أدري. لا بد أن ثمة أمرا آخر، إذ أن مثل هذه الإجتماعات الواسعة ما كانت لتنعقد الا في الحالات الإستثنائية. كان سلام يجلس في الوسط، مواجها باب الغرفة المفتوحة بينما كان يتكدس الى جانبه أعضاء اللجنة الآخرون وهم عبدالكريم ورافع وصلاح. كان عبدالكريم يدخن ويبتسم للآخرين فيما استغرق رافع وصلاح في

حديث جانبي. أما أنا فقد كنت أفكر في نعلي التي تركتها بين عشرات النعال المكومة عند الباب، إذ أن ضياعها محتمل جدا. فقد ينتعلها أحدهم ويذهب بها ومن ثم يتوجب علي أن أبحث عنها أمام الغرف الأخرى وفي أرجل الجميع. فكرت أن أنهض وأدسها في عبي، الا أنني خجلت، فقد يؤدي مثل هذا السلوك الى أن يسخروا مني جميعا، أنا الإسم المخطوء في إضبارات الشرطة.

كان سلام قد بدأ يتكلم:

– أصبحت الأمور بيننا سيئة جدا ولا بد من إعادتها الى نصابها. إن التنظيم هو الحقيقة الوحيدة القادرة على حمايتنا من اضطهاد السلطة ولا بد أنكم تعرفون أننا نعيش في نعيم كامل إذا قارنا أنفسنا برفاقنا الذين يعيشون في السجون والمعتقلات الأخرى. ففي سجن بعقوبة مثلا يتعرض المعتقلون الى الضرب بوحشية مع حلاقة شعر رؤوسهم، كما انهم ممنوعون من كتابة الرسائل الى ذويهم. أما نحن الموجودين في هذا المعتقل الذي يحلم الجميع بالإنتقال اليه فقد استطعنا ارغام الإدارة شيئا فشيئا على قبول هذا الوضع الإنساني الذي نعتز به. إننا لن نسمح بالتخريب ولن نتسامح إزاءه.

واصل سلام حديثه أما أنا فقد كنت أفكر في صف الأحذية التي علقها نزلاء الغرفة على الجدار المواجه لي. فالمعتقلون لا ينتعلون أحذيتهم الا في المناسبات، أثناء الذهاب الى التحقيق او المحاكمة او عندما يطلق سراحهم. ولكن هذا لا يعني أنهم يهملون أحذيتهم، فقد شاهدت كثيرين يقومون بتلميع أحذيتهم بين آونة وأخرى وارتدائها في الأعياد والمناسبات والتجول بها أحيانا في الساحة، مغمورين بحنين العودة الى الشوارع الصاخبة. وكانوا يفعلون الأمر ذاته أيضا مع ملابسهم القديمة التي كانوا يستبدلونها بأخرى جديدة، وكأنهم ذاهبون الى حفلة او عرس.

انتبهت الى عبدالكريم يقول:

- حسنا، سأذهب لاستدعائهم.

إنهم يتحدثون عن جماعة المستنقع.

خرج عبدالكريم مع رافع بينما استمر سلام في حديثه الى الذين جاؤوا يستمعون اليه:

- إننا لسنا ضدهم بالتأكيد، ولكننا ضد السقوط السياسي والتخريب. كان منعم الذي يجلس لصقي يقرأ في كتاب صغير يحمله معه، متظاهرا بالإصغاء من خلال

النظرات التي يلقيها بين فينة وأخرى الى وجه سلام. التفتت كل العيون نحو الباب. التفت، أنا الآخر. كان الجو مربدا والغبار يغطي الهواء الذي تحول لونه الى الأحمر. شعرت بنوع من التوجس الداخلي، كما لو انني أدخل في نفق يؤدي الى غرفة اعدام. كان المنبوذون الثلاثة يقفون أمام الباب ومعهم عبدالكريم ورافع. قال رافع:

– هيا ادخلوا فان الزملاء يريدون التحدث اليكم.

إنني أعرف يوسف، ولكنني لم أكن قد شاهدت الإثنين الآخرين قبل ذلك، ومع ذلك لم أكن بحاجة الى سؤال أحد لمعرفتهما. فمن خلال وجه شاحب منهك تملؤه الصفرة والضعف عرفت سلمان العامل أما حسين فقد بدا متعجرفا وعدوانيا، مثيرا اعجابي بلحيته الكثة التي لا أعرف إن كان قد أطالها أثناء احتجازه ام أنها كانت موجودة قبل ذلك.

تساءل حسين:

– حسنا، ما الذي تريدونه منا؟

قال سلام بلهجة هادئة:

– اجلسوا أولا!

جلس حسين ويوسف، أما سلمان فقد تقدم باكيا الى

سلام وقبله على رأسه. أثارت حركته المبتذلة عواطفنا جميعا. لقد أصبحنا معه رغم بؤسه وتفاهته. حاول سلام أن يبعد رأسه بدون جدوى، إذ فوجئ بقبلة سلمان البائسة. وأخيرا تهاوى سلمان على الأرض كجريح ينتظر رحمة قاتله.

تدارك رافع الأمر:

- إننا نريد أن نتحدث اليكم.

سأل حسين متحديا:

- ولماذا؟

- لقد طلبتم مغادرة المستنقع، أليس كذلك؟

ابتسم حسين ساخرا:

- وهل ثمة مستنقع آخر تريدون ارسالنا اليه؟

تدخل سلام:

- لا تعقد الأمر ياحسين. إننا نريد ايجاد حل للمشكلة.

صرخ سلمان متوجعا:

- إنني مريض، مريض جدا. إنني معكم في كل شيء. لقد أخطأت. أعترف أنني انسان تافه وحقير. هاأنذا أنتقد نفسي، فماذا تريدون أكثر من ذلك؟

قال حسين:

- إذن فانكم تطلبون منا أن نقلد مثل هذا السلوك البائس. إنكم تريدون مني أن أنتقد نفسي، لا لذنب ارتكبته، ولكن لتهدئة ضمائركم الملتاعة. إنني أملك أفكارا خاصة بي مثل كل انسان سوي. إنكم تتحدثون عن الحقيقة، كما لو انكم اشتريتموها من الله نفسه. كل ما في الأمر هو انني لا أريد أن أكون دمية بيد أحد. إن ايمانكم الأعمى بحقائقكم لن يجعلكم أكثر إخلاصا مني في الكفاح ضد اللاعدالة.

رد سلام بانفعال:

- أنت تعقد الموضوع يا حسين. فما دمت مصرا على نشر مثل هذه الأفكار البورجوازية الموبوءة فأنت أمام خيارين: البقاء في المستنقع او طلب الإنتقال الى معتقل آخر، تحدده لك الشرطة. ولكن الأفضل في هذه الحالة الذهاب الى أحد سجون المجرمين العاديين، لأننا سنوصي جميع رفاقنا في السجون الأخرى برفض قبولك بينهم.

قال حسين بهدوء:

- لا يهمني ما تفكرون به، ولذلك سأبقى في المستنقع الصغير، تاركا لكم مستنقعكم الكبير.

ثم نهض وغادر الغرفة الى المستنقع.

*

في صباح اليوم التالي قامت إدارة السجن بحملة تفتيش مفاجئة. فقد اقتحم القلعة حوالي عشرة حراس مسلحين بالمسدسات، يقودهم مأمور السجن منذر عبدالجبار، وهو شاب في حوالي السابعة والعشرين من عمره، ذو وجه أحمر غاضب. ترى لماذا هذه الحملة المفاجئة؟ خرج سلام وعبدالكريم لاستقبالهم فيما انهمك عدد من المعتقلين في اخفاء أجهزة الراديو الصغيرة الموجودة معهم في أماكن لا يمكن أن يفطن اليها الحراس. لكن كل هذه الإجراءات لم تكن ضرورية. فقد اتجه المأمور مباشرة الى غرفة المستنقع وحاول فتح الباب الذي كان مغلقا. حدق عبر الكوة ثم قال لعبدالكريم الذي كان يقف الى جانبه:

– صحيح أننا متساهلون معكم، ولكن ينبغي ايقاف مثل هذه المهزلة.

تساءل عبدالكريم، وقد ارتسم الإستغراب على ملامح وجهه مثل أي ممثل بارع:

– ماذا في الأمر؟

– هناك الكثير. أنت تحاول تضليلنا. . . أليس كذلك؟ أنت تعرف جيدا أن هناك ثلاثة معتقلين مضربين عن

تناول الطعام، بسبب حجزهم في هذه الغرفة الحقيرة. ماذا كنتم ستقولون عنا لو فعلنا نحن بكم ذلك؟ يبدو أنكم تحنون لتكونوا شرطة أسوأ منا. لماذا كل هذا؟ لماذا؟ هيا اعطوني المفتاح.

أعطوه المفتاح ففتح الباب المغلق. لم يكن يوجد في الداخل سوى حسين الذي قال للمأمور:

- أرجو الا تزعجني بالحديث، فان ذلك يسبب لي الصداع.

سأله المأمور باستنكار:

- أنت محتجز، أليس كذلك؟ لقد أرغموك على البقاء في هذه الغرفة.

- محتجز؟ لا بد أنك تنكت. يؤسفني أن أقول لك إن معلوماتك غير صحيحة، فقد اخترت العزلة في هذه الغرفة، لأنني لا أطيق ضجة المعتقلين. إنني أعاني في الحقيقة من الصداع.

- ولكن المعلومات التي بلغتني تشير الى انك مضرب عن الطعام، بسبب حجزك في هذه الغرفة، لاختلافك السياسي معهم.

ضحك حسين وقال ساخرا:

- ولماذا ينبغي أن يكون لي موقف سياسي مختلف عن موقفهم؟ لا توجد ذرة من الحقيقة في ما تقول، فأنا معهم حتى الموت. إنني أشكرهم في الحقيقة على منحي الفرصة لأستمتع بمثل هذا الهدوء هنا.

- حسنا، إذا كان هذا ما تريده.

ثم التفت الى المعتقلين المحتشدين أمام باب المستنقع وقال:

- حقا، انكم تثيرون استغرابي بمواقفكم الغريبة هذه. تضطهدون شخصا ما بكل قسوة وعندما نحاول التقرب منه ومد يد العون له يجفل منا، كما لو اننا كلاب جرباء. أخبروني أي سر محير ومدمر يكمن في رؤوسكم!

عندما غادر الحراس القلعة ظل باب المستنقع مفتوحا، إذ لم يجرؤ أحد على اغلاقه، فيما كان سلام الذي صدم بمداهمة الشرطة للمعتقل يفكر في المخبر المدسوس الذي ينقل المعلومات الى الشرطة عما يدور داخل القلعة.

الفصل السادس

في الأيام التي أعقبت حادث اقتحام الشرطة للمعتقل أصبحت القلعة أكثر كآبة مما مضى. ففي كل وجه من الوجوه المتألمة خطوط من الشك، محفورة بعمق. لم تعد القلعة طاهرة كما كانت فيما مضى، فقد أفلحت الإدارة في دس جواسيسها بيننا. وتكررت زيارات الشرطة لنا. لم يعودوا متساهلين معنا، فقد استدعوا عبدالكريم، عضو لجنة المعتقل مرات عدة وأهانوه على مرأى منا. لم يقل عبدالكريم شيئا. حاول أن يظل هادئا، واثقا من نفسه، رغم انه كان يجهد أن يكظم عواطفه الفائرة. أراد بعض المعتقلين أن يثور ضد الإضطهاد الجديد الذي صارت إدارة السجن تمارسه ضد المعتقلين، الا أن عبدالكريم منعهم من ذلك:

– إنهم يدبرون أمرا ما يريدون جرنا اليه. ينبغي أن نكون أذكى منهم. سوف نختار لحظة المعركة بأنفسنا.

كان مأمور المعتقل يشتم عبدالكريم بطريقة لم نألفها فيه من قبل. ماذا في الأمر؟ لا بد أن الأمور تغيرت. لقد كان رجلا طيبا ثم إذا به يتحول الى وحش كاسر.

- لا بد انهم تلقوا تعليمات جديدة من سادتهم.

إحتقن وجه المأمور وهو يخاطب عبدالكريم:

- يبدو أنكم لا تستحقون احترامنا. لقد حاولنا أن نعاملكم كبشر، لكنكم رفضتم ذلك.

ثم اختفى المأمور وراء البوابة الداخلية التي اغلقت ثانية فيما اجتاح المعتقلين توجس غريب يشبه مشاعر غريق يلمس العشب النابت في قعر النهر. دخل سلام غرفته واتكأ على الجدار. ظل يدخن بدون أن يجرؤ أحد على الإقتراب منه. لا بد انه كان يفكر في ما ينبغي فعله للرد على استفزازات المأمور. ها هو الليل يعود مرة أخرى ولا بد من ضوء قوي، ضوء في صحراء، فالخطوات التي تغوص في رمل الجريمة لا بد وأن تشكل ممرا يؤدي الى المدينة الأخرى التي تنتظرنا جميعا، وأنا معهم، أنا الذي لم تكن لي مدينة قط.

*

عندما أطل الصباح شعرت بعذوبة خاصة. لم يكن يشبه الصباحات الأخرى. فقد توقف الجميع عن العمل. لم يذهب عمال المطبخ الى العمل، ولم يخرج خفراء التنظيف لكنس الساحة او تنظيف الغرف. توقف حتى توزيع

الشاي. إنتابني لأول مرة منذ دخولي المعتقل شعور رجل عادي، رجل في الشارع. إختفى السجن فجأة وتلاشى كما تتلاشى الموجة الممتدة فوق ليل البحر، غاسلة رمال الساحل الأبدية. بحثت عن منعم في كل مكان من الساحة فلم أجده. أخيرا عثرت عليه داخل قاعة النوم. كان يحلق ذقنه. جلست على حافة الفراش أراقبه. كانت المرآة مسندة على علبة فارغة وهو أمامها يجلس منحنيا، باحثا عن وجهه. كان ثمة عشرة أشخاص آخرين على الأقل ينحنون على مراياهم، يحلقون ذقونهم او يرتدون بيجاماتهم النظيفة، متبادلين النكات بفرح سافر.

– لقد بحثت عنك في كل مكان.

– إنني أحلق ذقني كما ترى. هيا احلق أنت الآخر. فبعد قليل سوف أعرفك على والدتي وشقيقتي سلوى.

لا بد أن سلوى جميلة، فهي طالبة في الكلية. ترى ماذا لو حاولت كسب ودها؟ لا أعتقد أن منعما سيعترض على ذلك. فهو شاب رائع، طالما حدثني أن الثورة السياسية وحدها لا تكفي. ينبغي أن تكون الثورة شاملة، في الجنس، في الأخلاق، في الإقتصاد، في كل شيء. ليس المهم أن نصنع

الثورة. فالثورة التي لا تملك ما تقوله تولد ميتة. ما يهم هو خلق انسان جديد طهرته نار الثورة الإنسانية.

وكنت أقول:

– ولكن كيف؟ كيف؟

– أن نغير كل شيء.

– ولكن الناس يظلون الناس أنفسهم حتى في الثورة. لن يكون في وسعنا استئجار شعب آخر.

– لا يكمن الخطأ في الناس. إنه في المؤسسات القائمة التي ينبغي أن ننسفها، في الطبقات التي تضلل الناس. ينبغي أن نشق طريقنا الى السعادة عبر صحراء من النار.

– ستكون صحراء قاسية.

– ذلك هو الثمن الوحيد الممكن.

– وماذا بعد ذلك؟

– سنكون أقل شقاء.

*

لم أكن أنتظر أحدامن الناس الذين أعرفهم، اوُلئك الذين تربطني وإياهم عواطف مستديمة. فالناس الذين نعرفهم سرعان ما يقعون بحكم العادة في السهولة ويأسرهم النسيان الأخوي الذي لا تشوبه الخطيئة. لقد انتهت

علاقتي بصورة ما، ربما بسبب الخطأ الذي ارتكبه الشرطي الذي اقتادني الى السجن، مع العالم برمته. مع كل الذين عرفتهم في الماضي، في المقاهي ومكاتب العمل والشوارع. لقد نسيتهم، كما ينسى المرء أحيانا وجهه. إنهم معي، في رأسي، الا أنهم ليسوا سوى جثث أحتفظ بها، كما يحتفظ الكثيرون بالمحنطات. فكرت في الليلة الماضية أن أقبع في مكاني داخل المعتقل وألا أخرج الى الساحة الأخرى لرؤية الزوار مثلما أفعل دائما، فأنا رجل مهجور لا ينتظر أحدا. وإذا كنت أخرج الآن، جارا خطواتي الى الناس القادمين من كل أحياء هذه المدينة المدفونة في ذاكرتي والمدن الأخرى البعيدة التي لا أعرفها، فذلك لأنني أريد أن ألتقي سلوى. لقد وعدت منعما الذي أرادني أن أكون هناك.

ثمة نساء يرتدين العباءات وشابات أنيقات نضرات يذكرننا بسحر الحياة الأخرى خارج المعتقل. وكان ثمة رجال يلاعبون أطفالهم. نساء طاعنات في السن يحدقن في الوجوه وقرويات حافيات ينحبن بمرارة. امتلأ قلبي بالألم. أي عواطف هذه التي يحملها الناس الينا! إنهم يزيدون

شعورنا بالخسارة في حين أننا كنا ننتظر منهم أن يمنحوا قلوبنا ربيعها المفتقد. وكان ثمة من يضحك أيضا. سمعت عاشقا وعاشقة يتحدثان مغمومين. قالت العاشقة:

- لم أتخلف يوما واحدا عن الذهاب الى جسرنا الذي كنا نسير عليه كل مساء. إنني أقصده وحيدة. لا أريد أن يكون ثمة شاهد. وعندما أقف في منتصف الجسر ألقي بوردة واحدة في النهر. إنها وردتك أنت.

- قريبا سأكون معك لنلقي بورودنا معا.

إبتعدت عن العاشقين، باحثا عن منعم الذي كان يحدق هو الآخر في الوجوه، باحثا عني، ليعرفني على أهله. جرني من مرفقي وقال:

- تعال، لا تكن خجولا!

كانت تقف هناك مشجعة، رائعة كفجر فوق نهر. إنه هذا النهر الذي يجرف في عبوره كل الأدران المتراكمة في العالم. لا يمكن لفتاة أن تمتلك كل هذه الرقة. كانت نهري الذي جازفت طوال حياتي في الوصول اليه. ابتسمت لي مشجعة، فيما كانت يد منعم تضغط على مرفقي، كما لو انه يريد أن يقول لي: انظر كم هي جميلة أختي!

قال منعم:

- هذه هي سلوى التي حدثتك عنها.

قلت مخاطبا سلوى وأنا أغرق في زرقة عينيها:

- كيف أنت يا سلوى؟

هزت رأسها بخفة فتناثر شعرها الطويل في الريح:

- لا بد أنك عزيز. أشعر أنني أعرفك تماما. فقد حدثني منعم عنك كثيرا في رسائله.

رفعت أم منعم رأسها نحونا وقالت بلهجة عاطفية:

- هيا اجلسوا، فنحن جميعا أسرة واحدة.

لكم وددت أن أكون حقا واحدا من هذه الأسرة. كانت الأم حزينة بعض الشيء لمصيرنا. أما سلوى فلم تكن آبهة لشيء. لم تحاول أن تتحدث معنا كخاسرين او أن تغدق علينا عطفها مثل الآخرين، العطف المجاني الذي لا يقدم لنا سوى المزيد من الحزن.

قال منعم:

- هيا اشغلها عني لأتحدث قليلا مع أمي.

نظرت الي سلوى بعمق وقالت:

- هل تشعر بالأسى؟

- في البداية كنت حزينا جدا، أما الآن فلم أعد أكترث كثيرا بالأمر. يبدو أنني اعتدت حياتي الجديدة.

- ينبغي أن تقاوم هذا الشعور. هناك شيء واحد يربطك بالعالم هو شعورك بأنك ستخرج الى الشارع مرة أخرى. فاذا فقدت مثل هذا الشعور فانك تكون قد فقدت نفسك.

- ولكن العالم تخلى عنا. إننا ندفع وحدنا ثمن أخطاء العالم. الآخرون الذين يريدون منا أن نقاوم من أجلهم لجأوا الى الصمت. لم نعد مفيدين في نظر الآخرين، الأقارب والأصدقاء المنهمكين دائما بكل ما حرمنا منه.

قالت سلوى:

- أنت مخطىء تماما. فنحن معكم. نحملكم في قلوبنا مثلما نحمل العذاب، مثلما نعيش الحب. إننا نسمع أصواتكم في الليالي.

ثم انحنت علي برقة وقالت ساخرة:

- هل تريد مني أن أبكي؟ لا تجعلني عاطفية، أرجوك.

- نريد الا نُنسى.

رفعت كفها من تحت بلوزتها الملقاة فوق ساقيها وأخذت تحرك أصابعها برقة فوق وجهها. كانت ثمة كهرباء عاصفة ترجني حتى الرأس. إمتلأت نشوة لتلك الأصابع الرائعة التي تشعرني بوجودي لأول مرة منذ دخولي المعتقل. أما هي فقد كانت تبتسم بعذوبة مثل حلم بنهار

سعيد. ثم سمعتها تهمس لي:

- حسنا، إنني معك.

إمتلأت أعماقي فجأة بمحبة غامرة وسطعت أمام عيني أضواء كثيرة واشتدت ألوان العالم بهاء، منحدرا حتى نهاية الأفق فيما كانت أصابعي تتشبث بالأعشاب النامية على الضفاف، آملا الوصول الى مدينة أحلامي. كنت غريبا وسعيدا لأول مرة في حياتي.

تمتمت ببضع جمل، كمن يرفض أن يعترف بسعادته:

- ولكن هذا مستحيل، فأنت لا تعرفينني. قد لا أكون أكثر من غبي آخر. لقد دخلت السجن بمحض الصدفة. إنني لا أملك حتى قضية أدافع عنها.

- ليس هذا مهما، ليس مهما على الإطلاق. ما أشعر به اللحظة هو أنك أردتني أن أقف الى جانبك وها أنذا أفعل.

إنتفضت كما لو انني استيقظ من كابوس عميق وصرخت:

- لا أريد شفقة.

كان صوتي قد بلغ منعم الذي التفت الي ضاحكا وقال:

- لا بد أن سلوى أثارتك. إنها شيطان في جسد أنثى. كن حذرا معها!

قالت سلوى كمن يصدر أمرا:

- سنتفرج قليلا على السجناء.

ونهضت معها لنتنزه في الساحة التي كانت تمتلىء بالزوار والمعتقلين. قالت سلوى:

- الخيول الهرمة وحدها تستحق الشفقة.

*

ظللت طوال ذلك اليوم والأيام التالية ثملا من العواطف التي تصب في جسدي، فها أنذا أجد نفسي قريبا من امرأة ساحرة بعد أن اجتزت صحارى العالم كلها، وحيدا، غريبا حتى عن أقرب الناس الي. لم أكن قادرا على التآلف مع هذا الصوت الذي جاءني بغتة وأنا في السجن. لا بد انه حلم سرعان ما سيبدده ضوء النهار. فكرت أن الأمر كله ربما كان اكذوبة أقنعت نفسي بها، ولكنه، ويا للغرابة، لم يكن وهما. فقد كانت سلوى تجلس جنبي، ملصقة فخذها اللدن بفخذي ومادة أصابع كفها اليمنى الى وجهي، عابثة بشعري. كان في مقدوري أن أرصد الحقيقة، تشع من ابتسامتها الآفلة. لم يعد في امكان أحد أن يبعدني عن هذه الفتاة الجالسة في ظلي، فهي حريتي المفتقدة، البديل للعالم الذي خسرته مصادفة. إن سلوى لا توسع السجن الذي

يقفل أبوابه علي، ولا تنهي العذاب الذي أشعر به الآن، ولكنها تمنحني القدرة على المقاومة والإنتماء الى الآخرين. إنها الآخر الذي فتح مسامات جلدي وانسل بهدوء الى دمي. لم أعد أشعر بالوحدة، فها أنذا أجد نفسي فيها، متحدا، سيدا وحزينا كنبي على الصليب. فكرت أن ثمة من يفكر في مصيري، مغمورا بموجة من ضياء الكون.

*

لقد اقتادوا مصطفى، الفلاح الذي كان يحلم بأن يشيد عاصمة ثورته في الريف، أمس الى المحكمة، ولكنه لم يعد الينا، لم يعد الى زاويته في فناء المعتقل او الى أصدقائه القلائل الذين كانوا يمازحونه بالحديث عن موضوعات غريبة وشاذة:

– هل سيكون الجنس مباحا في عاصمتك القادمة؟

– ما هذا الكلام؟ هل تعتقدون أننا نقاتل من أجل فتح مبغى؟

– إذن أنت تريدنا أن نتزوج؟

– يمكنكم أن تظلوا عزابا إذا أردتم ذلك، ولكنني سأقتل بالرصاص كل من يعتدي على امرأة غيره.

لم يعد الينا مصطفى. انتظرناه حتى المساء ثم عرفنا أنهم

أرسلوه الى غرفة "الرياضة" وهي غرفة ضيقة مظلمة، حيث سيظل وحيدا هناك، لا يجد من يتحدث معه. ترى هل كان مصطفى ليهتم بوجوده معنا؟ هل يمكن أن يشعر بوطأة العزلة؟ لا أدري. ولكن سلاما الذي كان قد احتجز طوال ثلاثة أشهر في غرفة انفرادية في بداية اعتقاله قال ذات مرة:

بعد شهر واحد من وجودي في غرفة الرياضة شعرت أنني لم أعد أعرف كيف يتحدث الناس. صرت أشتاق الى سماع أي كلمة او جملة ناقصة تأتيني من بعيد. كان الحارس الذي يحمل الي طعامي يصر على عدم تحريك شفتيه حتى خلته أخرس تماما. كنت أموت شوقا الى أي صوت إنساني. فقد شعرت أن مثل ذلك الصمت لا يحتمل. ذات مرة انهارت اعصابي فرحت أصرخ بدون انقطاع. عندما وقف الحارس أمام زنزانتي صفعته، آملا أن يشتمني او تند منه آهة، لكنه ظل صامتا، يبتسم لي بلؤم ومكر. وفي النهارات المملة الطويلة كنت أتحدث مع نفسي بصوت مرتفع او أغني او أمثل مقاطع من مسرحيات مدرسية قديمة، كانت لا تزال عالقة بذهني، وأحيانا كنت أخطب بحماسة أمام جمهور لا وجود له. وفي الليالي كنت أنام مبكرا، حالما برجال ونساء، لا يكفون عن الكلام.

ترى هل يستطيع مصطفى عبور تجربة العزلة، بدون ندوب في روحه؟ أعتقد أنه كان يستطيع ذلك، فقد علمته حياته القاسية في الريف ما لم أتعلمه من كل الكتب التي قرأتها. ترى لماذا يعاقب هذا الفلاح العجوز؟ لماذا يوضع في زنزانة انفرادية؟ إنه ما زال يحاكم ولم يصدر أي حكم ضده بعد. أردناه أن يعود الينا، بيد أن المأمور رفض ذلك:

– إنه رجل شرير جدا.

– ماذا فعل؟

ضحك المأمور وقال:

– لم يفعل شيئا سوى انه قذف رئيس المحكمة بحذائه.

– ولكن لماذا؟ إنه ليس مجنونا.

– طلب منه الرئيس أن يعترف بجرائمه التي ارتكبها بحق الفلاحين وأن يطلب العفو. لكنه بدل أن يلين انتزع حذاءه وقذف به في وجهه صارخا: لا يمكن لقواد مثلك أن يدين الثورة.

عندما ارجعوه الى الموقف كانت كل ثيابه ملطخة بالدماء. يبدو أنهم ضربوه داخل القفص وخارجه، طالبين منا أن نؤدبه بعد وصوله الينا، لكنه لم يكن قادرا على تحمل المزيد من الضرب وما كنا نريد أن نتحمل مسؤولية موته تحت

أيدينا. فكرنا أن أفضل وسيلة للتخلص من الورطة هي احتجازه داخل إحدى الغرف الإنفرادية حتى يصدر عليه الحكم وينتقل الى السجن المركزي. إنه فلاح شرس جدا، فهو لا يزال يشتمنا حتى هذه اللحظة في زنزانته. إنه ناقم علينا جميعا.

لم أحزن كثيرا من أجله، بيد أنني افتقدته، وربما افتقدناه كلنا، هذا الثوري البريء، الواقف أمام عاصمة لم تشيد بعد. ترى هل أضاع مصطفى عاصمته الى الأبد؟ هل أضاع بطاقة الدخول الى عالمه الذي أراده أن يكون مختلفا عن عالمنا؟

ذات مرة قال لي مصطفى:

- ما الذي تقدمه لكم الوظائف في المدن؟ النقود؟ ولكن ما جدوى النقود إذا كان الثمن هو حريتكم؟ اهجروا الوظائف واذهبوا الى الريف، حيث لا شرطة او قوانين او محاكم او سيارات مسرعة في الشوارع! اذهبوا الى الغابات وتعلموا أن تحبوا الحيوان والشجر. هناك فقط توجد الجنة التي تبحثون عنها عبثا. إن كل ما يعوزكم لرؤية الجنة هو قليل من الشجاعة، قليل جدا.

ولكن إذا كان مصطفى قد كشف عن ستر الحقد الطبقي في المدن فانني اكتشفته في المعتقل. كانت ثمة غرفة صغيرة وجميلة تقع لصق غرفة سلام، مفروشة تماما ومؤثثة، مع طباخ نفطي عند الباب، لا يقترب منه أحد من الغرباء. في هذه الغرفة كان يسكن تاجر كبير ومحاميان وطبيب وأستاذ جامعي. كانوا يعاملون بطريقة خاصة من قبل الجميع حتى شعرت أنهم ضيوف شرف. لكن امتيازاتهم هذه كانت تثير تقززي واشمئزازي وحقدي. بل أنني تعمدت مرات عدة أن أهينهم. فرغم اننا كنا نأكل جميعا من طعام واحد، كان طعامهم يأتي دائما من المطاعم. كانوا قد اشتروا حرس المعتقل، ولكن لأنفسهم فقط، إذ لم يكن يعوزهم شيء. وفي زاوية من الغرفة كانت تتكدس دائما المعلبات المختلفة، مشكلة تلا مرتفعا نمر به ونحن جياع. كنا نسمعهم يتحدثون عن الثورة والضعفاء الذين يتساقطون أمام الإرهاب، في ذات الوقت الذي كانوا ينتظرون فيه اطلاق سراحهم، بعد أن دفعوا الرشاوى، مئات من الدنانير في جيوب الشرطة، ومع ذلك لم يكونوا ليقدموا زجاجة حليب واحدة لنا، نحن رفاقهم الفقراء، وقود ثورتهم القادمة. كنا نكرههم، ولكن كان ثمة من

يحبهم أيضا، فقد تحول سلمان بعد مغادرته المستنقع الى خادم لهم. كان يعد الطعام ويغسل ملابسهم. يأكل بعدهم. ينظف الغرفة ويسليهم بنكاته السخيفة. ربما كانوا يقدمون له بعض النقود التي يرسلها الى زوجته وأطفاله. فقد كف عن الشكوى من حياة المعتقل، بعد أن وجد خلاصه في خدمة علية القوم. وكان ثمة من يشير اليهم بود:

– أنظروا، انهم يضحون من أجلنا.

أما منعم فكان يقول لي:

– إنهم أذكياء جدا. عندما تنجح الثورة سيكون المجد كله لهم. إنهم وزراء السلطة القادمة.

وفي الليالي إذ كنا نجوع كان حسين يتسلل الى غرفتهم بخفة القط ويسرق مختلف الأطعمة الشهية. معلبات وحليب وجبنة وفواكه كنا نوزعها على فقراء المعتقل الآخرين، قائلين:

– كلوا، إنها من غرفة الخنازير.

وكان حسين يردد دائما:

– أشعر أنني لم أخلق لأكون معلما. إنني أفضل السرقة على أي مهنة أخرى.

عندما علم سلام بغاراتنا الليلية على غرفة الضيوف الكبار ضحك وقال:

- إنكم تثيرون البورجوازية الوطنية ضدنا.

*

أي بهجة هذه التي تدخل القلب فجأة فتحيل ليله الأسود الى نهار أبيض. ها هي الجدران تنهار في داخلي والجسد يمتلئ سلاما مثل شجرة ربيع تزهر في تلة رملية إذ الهواء المخضب بالندى، الضباب الكثيف يغرقني في النشوة. من بعيد، من الطفولة، حيث تحلق الفراشات فوق الأوراق وتعبر الفرس السوداء ساقية الناحية، حيث يتجمهر الأطفال أمام مخفر الشرطة المنعزل الواقع على الشارع الوحيد، ملاصقا للمدرسة الإبتدائية كنت أرى حركة القلب الذي لا نهاية لوجدانه يغمرني بذكرياته هنا في هذا السجن القاحل المتوحش. وكانت سلوى تطل علي من وراء الأسوار وتقول لي:

- ها أنت الآخر أدمنت على الحب مثلما يفعل اللصوص الهواة. أنظر، كم تبدو الأشياء نظيفة في الأمطار المفاجئة!

كان المطر يهطل بغزارة. لقد فاجأنا برعوده وبروقه. وكنت أضطجع على فراشي، فراش الأسمال، أحدق في

الليل يغسله المطر. كانت معي سلوى أيضا. كانت معي أمي التي لم تعد تعرفني. إنهما تنظران الي، أنا الناظر في المطر، عبر ظلام الليل، عبر مسافة الحرية الواسعة. امتلأت حزنا. لم يكن في الحقيقة ما يبرر حزني، فقد كنت فرحا حتى الحزن. طلبت سيجارة من أحد المعتقلين ونهضت. وقفت عند باب الغرفة الواسعة الذي لا يغلق فيما كان الآخرون منهمكين في استعادة ذكرى أفراح يومهم الذي انقضى. فكرت أن أكتب كل يوم رسالة الى سلوى. ستقول مع نفسها: لكم يحبني هذا الرجل المتوحد! ولكن هذا لا يكفي. سأكتب رسالة أخرى الى أمي. رسالة الى أخي. رسالة الى أصدقائي. ورسالة الى رجل لا وجود له.

أشعر اللحظة أنني غريب حقا. لماذا كل هذا الجنون؟ لقد فتح أمامي الناس الذين أعيش بينهم بوابة الى عالم آخر، لم أكن قد رأيته من قبل. هل أجرب الدخول اليه؟ ما الذي أخسره؟ لقد خسرت حريتي لقاء فعل لم أقم به، فما الذي أخافه بعد ذلك؟ كنت خائفا في واقع الحال. لم أكن أشبههم، ولكن لم يكن من الصعب علي أن أكون مثلهم، أنا الموجود معهم، أنا الغائب معهم. بيد أن سلوى قد تجد ذلك مضحكا. قد تسخر مني، أنا الذي أقف اللحظة وحيدا وأفكر وحيدا وأنظر في المطر وحيدا.

كانت الساحة خالية تماما. لم يكن يوجد أحد على الإطلاق. خرجت الى الساحة وجلست على صفيحة في زاوية المقهى المظلم المفتوح على الساحة. كانت الأشجار تعول مثل ارملة او نهر هائج، شاعرا أنها تهتز داخل جسدي الذي ذوبته عواطفه الجديدة. وعلى مقربة من الزاوية القريبة من غرفة الحراسة كان ثمة شبح يتحرك في الظلمة. جعلته موضوعا لي. لم أتبين ملامحه جيدا. رأيته يقف هناك ويقذف بشيء ما نحو غرفة الحراسة. ما الذي يقوم به هذا الرجل الليلي؟ التفت. كان خائفا من أن يُرى وحذرا يتلفت يمنة ويسرى قبل أن يتوجه الى غرفته. أما أنا فقد التصقت بالجدار أكثر فأكثر. في التماعة البرق الخاطف عرفته وميزت الجانب الأيسر من وجهه. إنه عبدالكريم، عضو لجنة المعتقل، بالذات. شعرت برجفة شديدة في أعضائي، إذ كانت ملامح وجهه تخفي وراءها شرطيا سقط عنه قناعه.

أعولت الأشجار مرة أخرى فعدت الى زاويتي الضيقة في الغرفة، مفكرا في الإنسان، هذا الكائن المضلل أكثر من سراب قافلة تائهة في جزيرة العرب.

الفصل السابع

قالت سلوى:

- إنني أتحدث عنك الآن كثيرا، ويخيل الي مرات أنك معي. ربما كنت أسيرة أوهامي.

- ربما كنت تسليتك، ربما كنت مجرد لعبة تتلهين بها.

- كلا، كلا، أنت مخطئ.

- لماذا؟

- لأنني أجد نفسي قريبة منك بالفعل.

- ولماذا أنا؟ لماذا أنا من بين كل الناس؟

- لا أعرف. ربما لأنك حقيقي أكثر من الآخرين. لقد أدركت ذلك منذ اللحظة الاولى حتى قبل أن نتكلم.

- ولكنني لست حقيقيا. لا أعرف إن كنت حقا رجلا حقيقيا، كما تقولين. إنني رجل ضائع. أنت مخطئة. لست حقيقيا. إنني وهم تتشبثين به. ليس ثمة ما هو حقيقي. كل ما في العالم هو لعبة على مائدة مقامرين خائبين. وأنت تلعبين. تلعبين معي لعبة لا أتقنها.

- كفى، لا تعذبني أكثر.

- لست سوى فتاة حالمة. كان ينبغي أن أكتشف لعبتك

منذ البداية. كيف يمكن لفتاة مثلك أن تسند رجلا مقهورا، في الأغلال مثلي! كم كنت ساذجا يا إلهي! كم كنت غبيا وأبله!

– إنني أحبك. لماذا ترفض حبي؟ أنت تحبني. أعرف ذلك. ولكنك تريد أن تتأكد من مشاعرك. لست واثقا من نفسك تماما. فأنت تعتقد أن حلمي أكبر منك. ولكنني لست سوى فتاة بائسة رغم كل طفولتها. أنت كثير علي. دعني أنظر اليك كحلم. هل يمكن أن نرفض أحلامنا؟ هل يمكن؟

– إنني مرتبك. أشعر أن ذلك عادل أكثر مما ينبغي، عادل في عالم غير عادل.

– المحبون لا يطلبون ثمنا لحبهم. أنت تحب الأنهار والأشجار، بدون أن تطلب منها شيئا. الحب الحقيقي هو الحب الذي لا طلب له. ينبغي أن نعطي بدون أن نأخذ الثمن. ينبغي الا ننتظر شيئا على الإطلاق.

– هذا عادل أكثر مما ينبغي.

– لطالما حلمت أن أحب رجلا لم أره أبدا، رجلا لا يمكن أن يقدم لحبي أي ثمن. كل شيء في هذا العالم يمكن أن يباع ويشترى ما عدا حبي. لا أريد أن تتزوجني، فالزواج

ثمن تدفعه لي. إنني أحبك هكذا مغلولا، لا أمل لي فيه. فمن أجل أن نكون رائعين ينبغي أن نتخلى عن الأمل، هذا السراب الذي نُفني حياتنا كلها للوصول الى ما يعدنا به، ولكن بلا جدوى.

هل تعرفين كم أنت رائعة!

– مثل قلب غادره الأمل.

*

كان الضوء يتدفق فوق النخلة الوحيدة الموجودة في الساحة الخارجية، مما جعل السعفات المغبرة تضيء في حين اتخذت يمامة برية عشا لها عند رأس النخلة وراحت تصوح بصوت شجي، كما لو أنها تردد لحنا موسيقيا متكررا. ولكن هذه الموسيقى كانت تضيع في ضجة السجناء والزائرين، مشكلة عويلا لايمكن سماعه بيسر.

ضحكت سلوى في هذه المواجهة التي كانت هي السابعة التي ألتقيها فيها وقالت:

– هل تعرف؟ قبل أسبوع ذهبت في سفرة مدرسية الى الجبل.

– إنني أحب الجبال.

– إنه جبل مرتفع يقع على مقربة من نهر، تسلقته لأول

مرة، الا أنني كنت أتوقف أحيانا، ملتقطة أنفاسي، وكان يقف الى جانبي دائما شاب يحرضني على الصعود. إنه أحد أصدقائي في الكلية. عندما ارتقيت القمة رأيت السهول والمروج كلها تنبسط تحت قدمي، خضراء تميل الى الزرقة. وكانت ثمة فرس تعدو خببا عند فم الوادي. فتحت ذراعي وصرخت: انني أحب العالم كله، أحب كل شيء، الفراشات والأحجار واليساريع، كل شيء في الوجود.

ثم سمعت موسيقى تعزف أسفل الجبل، مختلطة بأصوات متهدجة وضحكات تتدفق من صنبور عميق. وكان الشاب، صديقي، يناديني: تعالي، تعالي، أيتها العنزة البرية!

– ما كان ينبغي لك أن تعودي.

– عند ذاك هبطت من الجبل. في الطريق تساءلت عما إذا كنت سأحبك مرة أخرى. شعرت أنك قد تكون ميتا عندما أزورك. لكن كل ذلك لم يكن سوى وهم اختلقته لنفسي. فها أنت تقف الى جانبي، تبتسم وتفتعل دور المحب. هل أخبرت منعما أننا متحابان؟ لا تخبره. دعنا نخدعهم قليلا. لن يضرهم ذلك. لقد خدعنا بما فيه الكفاية إذ كانت ثمة على

الدوام أمور تدور وراء ظهورنا. ومع ذلك فان والدتي قالت لي قبل أيام: أشعر أن عزيزا واحد منا. ما الذي كانت تعنيه بالضبط؟ لا أعرف. ليس مهما أن نعرف ما دمنا لا نريد منهم شيئا.

- إنني أرتجف.
- إنها الحمى، يا إلهي، الحمى النبوية.
- أشعر أنني أكثر وحدة مما مضى.
- ولكنك ستظل معنا، متحدا بالذنوب والفضائل.
- إنني أرتجف.
- إنها الحمى يا إلهي، إنها الحمى النبوية. تقدم إذن أيها الرائي، فوراء الأفق مدينة أخرى تحمل اسمك.
- إنني أرتجف، اتركيني.
- وداعا.

إنطفأ الضوء على النخلة الوحيدة فيما كنت أعبر في نعاس النبوة معراج يقظة جديدة لم أعرفها أبدا من قبل. وكان ثمة أناس يتجاذبون الأحاديث على مقربة مني، حيث أرى التاريخ يتجمع داخل قنينة واحدة ثم يعاد سكبه على الأرض مثل أي شيء آخر في هذا الوجود.

*

سألتها في آخر زيارة لها للمعتقل:

- هل تعتقدين أن مثل هذا الحب العابر يمكن أن يدوم؟

- لا أدري، فأنا غالبا ما أسأل نفسي عندما أكون في مكان غريب او أرى شجرة معينة عما إذا كنت سأعود لرؤية المكان او الشجرة مرة أخرى قبل أن أموت. ولكنني أعرف دائما أن المكان سيظل قائما بعدي وكذلك الشجرة. قد لا يدوم حبنا، لكنه لا يمكن أن يموت أبدا. إنه يظل معلقا في الهواء، في الليل والأشجار وفي نسغ الحياة. ما من شيء يموت. إنه يظل بعدنا صورة في ذاكرة الكون.

- آه، أو ينبغي علينا أن نظل معلقين في ذاكرة الكون الى الأبد؟

- هكذا بدون أجساد، وقد تحولنا الى فكرة.

- إنك تحلمين.

- أحلم لأصل الى حبي.

- سيكون ثمة جدار ترتطمين به.

- إنني أعبر الجدران. أونسيت أنني فكرة؟

- لا يمكن أن تقاومي حتى النهاية.

- سأحاول.

- وعندما تفشلين؟

- سأجد طريقاً آخر.

- ولكن الى أين؟

- الى اللاشيء، اللاشيء العظيم.

الفصل الثامن

كنت قد استيقظت من نومي قبل أكثر من ساعة ومع ذلك ظللت أتقلب في فراشي، غير آبه للأصوات الضاجة، ترتطم بالجدران. ورغم انني لم أكن نائما تماما الا انني لم أكن مستيقظا كذلك. فقد شعرت انني أسلك رحلة لا نهاية لها بين النوم واليقظة. وبين فينة وأخرى كنت أرى أشجارا تمتد كأخطبوطات سحرية أمام مجرى نهر يتدفق مخترقا تلا تحلق فوقه الطيور، فيما كانت الأسود تجثم على مقربة من الغابة. لم أكن أشعر بأي عاطفة الا أن ذلك لم يمنعني من أن أرى أنني أقتحم عالما لم أعرفه من قبل. أأنا غريب حقا في هذه البقعة التي لم أعثر عليها فوق أي خارطة للكرة الأرضية؟ سمعت الأسماك تخبط، متدفقة في قوافل. على الجانب الآخر من النهر رأيت سلوى تقف قرب أسد وديع. فكرت: لا بد انه صديقها منذ زمن بعيد. هرب الأسد فجأة نحو الجانب الآخر من الوادي، فيما ظلت سلوى تقهقه مثل فتاة صغيرة في حفل مدرسي.

- أين عزيز؟ إنهم يريدونه.

جفلت فجأة، كما لو أن حصانا مر فوق أطرافي. نهضت

وفركت فروة رأسي بأصابعي. سمعت عبد الكريم يقول لي:

- إنهم يريدونك في الإدارة. هيا اسرع!

- ماذا يريدون مني؟

- لا أعرف. إنهم ينتظرونك عند الباب.

كنت أريد في الحقيقة أن أواصل الغرق في أحلامي، عائدا الى سلوى التي هرب منها أسدها الى الجانب الآخر من الوادي، الا أنني واسيت نفسي: لا بد انهم يريدونني لسبب مهم. ربما قرروا اطلاق سراحي وقذفي ثانية الى الشارع.

واقفا أمام الباب سألني الشرطي بارتياب:

- هل أنت عزيز محمود؟

ثم هز رأسه بدون أن ينتظر جوابي:

- هيا تعال، إنهم ينتظرونك.

تقدمت عابرا البوابة الحديد ووقفت في الممر الخارجي أراقب الشرطي وهو يغلق البوابة ويتجه الي. سرت على مقربة منه، محدقا في حذائي. ابتسمت مع نفسي عندما لاحظت أن الحذاء في رجلي اليمنى يترجرج بعد أن سقط شريطه. وقفت أمام غرفة المدير، منتظرا الشرطي الذي

كان قد سبقني ودخل الغرفة. عاد وجرني معه. كان المدير يجلس وراء مكتبه فيما ثمة شخصان آخران بملابس مدنية يجلسان على أرائك عتيقة.

وجه المدير الي نظرة احتقار قبل أن يقول لي:

- لقد ذكرت في عريضتك عند دخولك المعتقل انك شخص غير سياسي وقد اعتقلت خطأ، الا أن التقارير التي وصلتنا تؤكد عكس نلك. فأنت لست مجرد سياسي اعتيادي وانما من المتطرفين أيضا.

قلت منفعلا:

- هذا كذب واضح. إنهم يكذبون عليك.

فجأة شعرت أن الغرفة قد غيرت موقعها. فقد فاجأني الشرطي الذي كان يقف ورائي بصفعة شديدة على مؤخرة رأسي، جعلتني أترنح في مكاني. ثم راح يصرخ بي:

- عندما تقف أمام السيد المدير عليك أن تخرس تماما.

إستعدت توازني بعد أن أوشكت على السقوط، قائلا للشرطي:

- لماذا تضربني؟

رد أحد الشخصين الجالسين، وهو شاب نو وجه أنثوي:

- إخرس أيها الكلب.

تدخل المدير، موجها الحديث الي:

- هل اعتقدت أن في إمكانك خداعنا؟ إن مئات من أمثالك يمرون علينا كل يوم، ثم سرعان ما نكتشف حقيقتهم التي يحاولون اخفاءها تحت مظاهر البراءة والوداعة.

- ولكن ماذا فعلت؟

سحب الرجل الثاني الذي ظل صامتا طوال الوقت إضبارة من فوق مكتب المدير ثم فتحها وجر ورقة منها، قائلا:

- لقد رفعت عنك تقارير عدة منذ دخولك السجن. وما دمت مصرا على براءتك فانني سأقرأ عليك بعضا منها.

التقرير رقم -١-

رغم مظاهر البلادة البادية على وجه عزيز محمود سعيد فانه لا يقل خطورة عن الآخرين. فقد حاول منذ وصوله الى المعتقل توثيق صلاته ببعض الثوريين المتطرفين من أمثال منعم وحسين وسلام. كما أنه يمضي معظم أوقاته في المناقشات وقراءة الكتب الهدامة. وهو غالبا ما ينصت بانتباه الى الأحاديث السياسية ولا يكف عن مراقبة

الموجودين. ورغم انه يحاول اخفاء هويته الحقيقية الا أنني أعتقد أنه شخص مدسوس لمراقبة النشاط الداخلي للسجن، ومن ثم اطلاق سراحه بعد مدة لعدم وجود ما يدينه، حتى يرفع تقريرا الى منظمته عن كل واحد من السجناء.

تقرير رقم -٢-

لقد فرضت عليه رقابة شديدة. أعتقد أنه هو الآخر يراقبني. فقد سخر مني ذات مرة أمام السجناء، قائلا: إن العدالة اختفت من هذه المنطقة من العالم. ويحاول عزيز من جهة اخرى الإتصال بمعارضي لجنة السجن، بهدف معرفة حقيقة الموقف من الداخل. وقد استطاع الحصول على ثقة الكثيرين، محاولا فرض سيطرته عليهم. وفي أحد الإجتماعات الأسبوعية تحدث لأول مرة منذ وجوده في المعتقل، فاتضح انه ليس بالبلادة التي كان يتظاهر بها.

تقرير رقم -٣-

أقدم عزيز محمود سعيد هذه المرة على عمل يكشف هويته تماما. فقد أشرف على تنظيم احدى الحفلات

المسرحية داخل السجن وتولى كتابة مسرحية درب الممثلين على تمثيلها.

توقف الرجل عن القراءة، محدقا في، محاولا التعرف على الأثر الذي تركته تقاريره في نفسي. فكرت: وأخيرا أصبحت متهما حقيقيا، لي جرائمي وذنوبي مثل الآخرين. ولكن كان لي أيضا حبي الذي يسطع مثل فجر يضج بملايين العصافير. فهاأنذا أقف أمام قضاة لا أعرفهم وأعيش بين جواسيس كتومين يحاولون أن يعروني من ثوب براءتي.

سمعت المدير يعوي من جديد وتنتفخ أوداجه بكلمات متقطعة:

– حسنا، هل تعترف الآن؟

– ليس ثمة ما أعترف به. إنني لست منتميا الى أحد.

– ولكن التقارير تدينك.

– كل ما في الأمر هو انني موجود بينهم وعلي أن أعيش معهم.

– ولكن هذا لا يعني الدفاع عنهم وحمايتهم. إنهم هم الذين وشوا بك.

- من؟

- لا تتغابى. أنت تعرف من نقصد. هل تريد أن نكشف لك عن أسمائهم؟

-. . . . .

- حسنا، إذا لم تكن منهم فاثبت ذلك لنا.

قلت:

- كيف أثبت لكم ذلك؟ لقد اعتقلت وأنا جالس في المقهى.

قال الشاب ذو الوجه الأنثوي:

- نريد منك أن تعمل معنا. وإذا ما تأكد لنا اخلاصك فسوف نطلق سراحك بعد حين ونعيدك الى وظيفتك. وإذاما أردت فقد نعينك في وظيفة أعلى وأفضل منها. أنت تعرف أننا لا نقصر مع الذين يتعاونون معنا.

قلت، محاولا التماسك:

- إنني بريء قبل أن أدخل المعتقل وبدون الوظيفة التي تعرضونها علي.

رد المدير بهدوء:

- ما من براءة مجردة. لكل شيء ثمنه.

- هل ينبغي لي أن أكون جاسوسا حتى أثبت براءتي؟

أثارت لهجتي الشاب ذا الوجه الأنثوي فنهض واقترب

مني، محدقا في عيني، كما لو أنه تلقى طعنة غير متوقعة مني ثم قال:

- أخرج أيها الحمار. لا شيء يفيد معكم.

إذ كنت أغادر الغرفة شعرت بركلة قوية على مؤخرتي ألقتني خارجها. ثم جذبني الشرطي من يدي اليمنى وجرني عائدا بي الى المعتقل. هناك وأنا أجتاز البوابة الى الداخل، مهموما يملؤني الألم، وسط معتقلين تجمعوا حولي، شتمني الشرطي باحتقار:

- أدخل أيها النذل!

ثم التفت الى المعتقلين وقال، متصنعا التعاطف معهم:

- إحذروه، فقد وشى بكم. سوف ينادون على بعضكم للتحقيق معه.

صرخت وقد آلمتني كلماته:

- إنه يكذب، إنه يكذب.

تقدمت مرتبكا خطوات الى الأمام وقد تملكني شعور عميق بكرامتي الجريحة. ماذا يمكن أن أفعل إزاء كلمات شرطي كاذب؟ رأيت شررا في العيون المحدقة بي. إنهم يدينونني، لأن الإدانة وحدها تبرر وجودهم في المعتقل. أي غفلة هذه التي تبدل لون الأشياء، بحيث يبدو حتى النهار

الساطع أكثر دكنة من الليل! أي هوس هذا الذي يجعل من الأكذوبة لعبة ضمائر تعاني من أثقال خفية غير مدركة. أي خلاص أجوف هذا الذي لا يصله المرء الا على أشلاء ضحية!

- إنه يكذب، يكذب.

رأيت عبدالكريم يقف في المقدمة ويحدق بي ساخرا. أخذت الدائرة تتسع حولي، كما لو انني مهرج في حفلة قروية، تتسع شيئا فشيئا، متخطية حدود الباحة الصغيرة وجدران السجن، شاملة العراق كله، آسيا كلها ومن ثم العالم.

في البداية رأيت عشرات العيون تحدق بي، أنا الذي ظللت أصرخ بجنون "إنه يكذب، يكذب"، ثم راحت تتكاثر باستمرار، كما لو أن وباء هبط فوق السجن فجأة مولدا عيونا جديدة في كل لحظة. ظلت العيون تتكاثر وتتكاثر حتى شعرت أنها صارت مئات، ألوفا، بل وملايين. "إنه يكذب، إنه يكذب". كان ريقي قد جف وخفتت الشمس الساقطة فوق الأسوار حتى تحولت الى مجرد ظل باهت. ثم أخذت الدائرة تضيق، تضيق، تضيق حتى لكأنني أضغط داخل زجاجة مغلقة. كنت أرتجف كشجرة تواجه

الريح، وفوق رأسي ألف شمس تتألق. إختفت الوجوه. لم تعد ثمة ملامح. كانوا يقتربون مني مثل كتل هلامية لا شكل لها. سمعت نفسي أتنفس بعمق فقلت لنفسي: ها أنك تواجه محنة حقيقية هذه المرة. كان يجب أن تكون ساحرا لتتعلم المشي على نار الجمر حافيا.

وجدت نفسي أصرخ بصوت عال: "أتركوني، كيف تصدقون شرطيا؟ إنني لم أخن أحدا." محاصرا شعرت أنني أصعد سلما لا نهاية له نحو الله. كان ثمة حلم يجعلني أموت من العذاب. استيقظت فجأة، شاعرا أن تيارا من البرق يعمي عيني. لقد لطمني شخص ما على وجهي. سمعت صرخات متداخلة.

– أضربوه حتى الموت!

– هذا الجاسوس.

– مدسوس. الموت للخونة.

كنت أسمع صراخهم وأنا أتلوى تحت ضرباتهم الهستيرية. رفعت كفي ووضعتهما فوق أنني، وبمرفقي حاولت حماية وجهي، ملتما على نفسي. لم أكن أعرف كيف أتقي ضرباتهم فانتابني هوس أن أستسلم أكثر فأكثر للألم، بدون أن أتوقف لحظة واحدة عن التفكير، وقد

استغربت كيف يمكن للمرء أن يفكر تحت ثقل كل هذه الضربات، هذه الأيدي التي كانت ترتفع ثم تهبط بفوضى، هذه الأرجل الخشنة التي تسحق جسدي المستسلم. في تلك اللحظات بزغت سلوى في رأسي. كانت منكفئة علي تواجه هي الأخرى ركلاتهم بجسدها، ممسكة بيدي. لكنها نهضت في النهاية ووقفت أمام إفريز مطل على ليل هائم فوق واد أبيض، وكان أمامها جمهور صاخب. سمعتها تصرخ بهم "اللعنة عليكم". كانوا يصفقون لها. ثم رأيتها تعود الي مبتسمة. بدون وجل تعرت من ثيابها واستلقت تحتي. وكنت أهبط اليها، ممزقا بالألم والشهوة. كنت منكفئا على وجهي، فيما كانت سلوى هناك تحتي، بين فخذي، وكنت أمسك بها فتشدني هي الأخرى الى جسدها الرائع الذي بهرتني رائحته فرحت أنوب فيها، متشبثا بشعرها. إنني أموت. كانوا يضربون بأرجلهم على رأسي. انحدر الدم على وجهي وملأ عيني. سمعت سلوى تتأوه هي الأخرى. ثم همدت، غائرا في الليل.

*

كانت أشعة الشمس تتسرب عبر النافذة الى الغرفة التي تفوح برائحة النفتالين، فيما الريح تهز جذوع الأشجار في

الحديقة. حاولت أن أفتح عيني الا أن قوة خفية منعتني من ذلك، ومع ذلك قاومت الألم الذي كان يشل أعضائي. عندما مددت يدي الى رأسي شعرت بها ترتجف فوق ضماد ملطخ باليود. فجأة إتضح كل شيء أمامي، كما لو أن نورا باهرا سقط في دغل الظلام الذي كنت تائها فيه. إنني لم أمت إنن. ما زلت قادرا على التفكير. شعرت بشيء من سعادة غامضة، مخلوطة بالغيظ. كان الجرح أعمق مما يمكن لي أن أغض النظر عنه. فكرت كم هم حمقى اؤلئك الذين أرادوا الفتك بي، بدون أي يقين. كل ما في الأمر هو أن شرطيا حرضهم ضدي، فصدقوه حتى بدون أن يستمعوا الى ما كان يمكن لي أن أقوله لهم.

كان السرير الذي أنام عليه مريحا بعض الشيء. شعرت بألم في كتفي اليسرى، فانتبهت الى أن يدي اليسرى كانت مغلولة بمقبض من الحديد الى السرير ومرفوعة الى الأعلى مما سبب احتقان الدم فيها.

أجل إنني أرى كل تلك الأرجل الحجرية تهوي فوق وجهي، تاركة في القلب جروحا لا يمكن تضميدها. يا إلهي لماذا عاملوني بمثل كل تلك القسوة؟ فكرت أنني كنت دائما بدون قضية، أما الآن فقد صارت لي قضية ينبغي علي أن

أدافع عنها لأنها الإمتحان الوحيد لتبرير وجودي. لقد صارت عندي قضية منذ اللحظة التي حوصرت فيها، مثل سمكة مقذوفة فوق الرمل. كانت ثمة مئات من العيون ترصد حفلة موتي، فيما ألوذ أنا بوحدتي، كما لو أن الأمر لا يعنيني. من أخطائي التي ينبغي لي الإعتراف بها هي أنني أردت أن أظل وحيدا، لا علاقة لي بما يفعله الآخرون، ولذلك تكتمت حتى على خيانة عبدالكريم الذي كان يوصل تقاريره الى الشرطة، بوهم أن الأمر لم يكن يهمني الا بقدر تماسه بي. ولكن ها أنذا أصبحت جزءا من القضية، رغما عني. لا لست خائفا وانما حزين.

بعد قليل انفتح الباب فدخل مضمد، يتبعه شرطي. قال المضمد:

- حسنا، لقد أفقت أخيرا.

ثم سأل بتلقائية:

- لماذا فعلوا بك كل ذلك؟ أمر لا يكاد يصدق.

قلت متجنبا الدخول في حديث حول الأمر معه:

- لا أعرف.

علق الشرطي ساخرا:

- إنهم دائما لايعرفون أي شيء.

قال المضمد مواسيا:

– لقد أوشكت على الموت. ماذا تنتظر أكثر من ذلك؟

صرخت متألما:

– فكوا وثاق يدي على الأقل. إنني لا أطيق ذلك.

رد الشرطي بلهجة قاطعة:

– لا يمكن، الأوامر تمنع ذلك. هل تريد أن تقطع رزقي؟

– أية أوامر، إنني أموت من الألم.

– لماذا لا تقول ذلك لرفاقك الذين ضربوك حتى أوشكت على الموت؟

ثم أضاف بلؤم:

– هل حقا أنت خائن كما يقولون؟ ولكن ماذا فعلت؟

سكت، مختنقا بغضبي. فكرت أن أصرخ به لولا معرفتي بأنه لن يتوانى عن توجيه المزيد من الإهانات الي.

التفت الشرطي الى المضمد، قائلا له:

– ينبغي أن أغلق النافذة أيضا، فقد يهرب بطريقة ما.

رد المضمد مبتسما:

– لا تبالغ كثيرا في الأمر.

لكنه تقدم مع ذلك وأغلق النافذة، مسدلا الستائر، فاختفت الأشجار والشمس عني.

أطلق المضمد ضحكة ساخرة وقال له:

- لا بد من مراقبته جيدا، فقد يتبخر عبر ثقوب النافذة.

رد الشرطي:

- أعرف، أعرف، لقد أمضيت عمري كله في خدمتهم.

أردت أن أبكي، لولا خجلي من نفسي. كنت في الحقيقة خجلا من كل شي في العالم، من الجميع، من الشرطة والمضمدين والمعتقلين. انكفأت على وجهي في مواجهة الجدار، مفكرا في الظلام الذي يملأ روح الإنسان. ثم سمعت المفتاح يدور في القفل. لقد خرجوا.

عند ذلك شعرت بحرية أن أبكي، بدون خجل من أحد.

*

في اليوم التالي استدعيت للمثول أمام لجنة للتحقيق. عبرت الممر الذي يربط غرفتي في مستشفى السجن بإحدى الغرف التي كانت تقع في نهايته، لاهثا وراء شرطي يتقدمني، كان قد فك أغلال يدي قبل ذلك وظل يحملها في يده. فكرت: ترى ما الذي يدبرون هذه المرة ضدي؟ ماذا يريدون مني؟ دخلت الغرفة ووقفت ساكنا أحدق في وجوههم. كنت قد اتخذت قراري قبل ذلك: لن أتساهل معهم بعد الآن. ظل المحقق الجالس في الوسط يحدق في

وجهي هو الآخر. ثم رأيته يفتح فمه ويقول:

- حسنا، قل لنا ما لديك!

قلت:

- ليس لدي ما أقوله.

بدا الإمتعاض على وجه الرجل، فسأل مستغربا:

- لقد ضربوك، أليس كذلك؟

-. . . . .

- قل لنا أسماءهم حتى نحقق معهم.

- لا أعرف أحدا منهم.

بدا الرجل مستغربا من موقفي:

- ولكنك تعرف السبب بالتأكيد.

- لا يوجد أي سبب.

انفجر الرجل الذي كان يجلس الى جانب المحقق، رافعا رأسه عن الأوراق التي ظل منهمكا في قراءتها طوال الوقت:

- لا تكن أحمق وغبيا. إنهم أنفسهم يتهمونك بالعمل معنا.

قلت غير مكترث بتحريضه إياي ضد المعتقلين:

- إنني لا أعمل مع أي أحد.

واصل الرجل استفزازه لي:

– ولكن رفاقك يعتقدون أنك تقدم التقارير ضدهم.

قلت ساخرا:

– أنت تعرف الحقيقة أفضل منهم.

تدخل الرجل الثالث الذي ظل صامتا طوال الوقت:

– وماذا في ذلك؟ هل تعتقد أن العمل معنا لمصلحة الوطن عار لا تقبله لنفسك؟ إن موقفك هذا يدل على أنك ضد النظام. فلو كنت مخلصا حقا لما تورعت عن تقديم أي معلومات تقضي على المخربين في البلد. نحن أنفسنا نعمل للنظام. هل تعتبر عملنا عارا؟

قلت، محاولا الإفلات من الفخ الذي حاول الرجل أن يجرني اليه:

– لكل عمله الذي يختاره لنفسه.

رد الرجل الذي يجلس في الوسط:

– من الواضح أنك تكرهنا، ومع ذلك تدعي البراءة.

قلت بهدوء:

– هل ينبغي أن أحبكم حتى أكون بريئا في نظركم؟

فجأة نهض الرجل الذي تحدث عن العار وصفعني على وجهي الذي كان مشدودا بالضمادات فشعرت بالغرفة تتلاشى أمام عيني، هابطا في الظلام. ومع ذلك قاومت

السقوط. أردت أن أقف على رجلي، مهما كان الثمن. إنحدر خيط من الدم على أسفل جبهتي، بلغ طرف حاجبي الأيمن ثم انحدر حتى نهاية أنفي وبلغ شفتي. مددت لساني وتحسسته. كان مالحا، ملطخا باليود. عاد الرجل الذي صفعني الى مكانه، شاتما إياي بكلمات لم أفقه منها شيئا. ثم سمعت الرجل الذي كان يتوسطهم يقول:

– سنعيدك مرة أخرى الى رفاقك ليفتكوا بك. ليس ثمة عقاب أفضل من ذلك لك.

شاعرا بالدم يملأ فمي والظلام يغشي عيني وجدت نفسي أبصق في وجهه، كما لو أنني أبصق في وجه كل التباساتي الشخصية. في الليل الذي وجدت نفسي فيه كنت أبحث عن شمس وراء الأفق، وراء الموجة المتعاظمة في الريح.

الفصل التاسع

لم يعيدوني الى قلعتي، فقد تقرر تغيير كل شيء. فجأة أصبحت موضوعا مهما في اهتماماتهم، بعد أن ظللت طوال شهور مجرد رقم مهمل في القائمة، لا أحد يكترث بي. ولكن ها أنهم اكتشفوا أنني أكثر من رقم منسي عندما بصقت في وجه محققهم.

إنني أتذكر بغموض ما حدث معي بعد ذلك، او بعضه على الأقل. أمسك بي أحدهم من شعري ولطمني على وجهي فيما كان واحد آخر منهم يركلني على مؤخرتي. قررت ألا أصرخ مهما كان الثمن. أخجلتني فكرة أن أصرخ. لكن الأمر لم يكن سهلا. فقد سقطت على ظهري فيما جلس الرجل الذي بصقت في وجهه على صدري وراح يضربني بين عيني. حاولت أن أمنعه عبثا. أتذكر أنهم كانوا يشتمونني. ومع شتائمهم كنت أسمع أغنية حب من جهاز راديو مفتوح في غرفة أخرى.

فكرت أنني ورطت نفسي أكثر مما ينبغي. ترى هل كان ينبغي لي أن أنفعل، كما فعلت؟ هل كان ينبغي لي أن أهينهم بالطريقة التي أقدمت عليها؟ أجل، أعتقد ذلك. فرغم كل

بؤسي شعرت بالسعادة تغمرني، سعادة الرضا عن نفسي. أحيانا يكون من الضروري أن نضحي حتى بحياتنا من أجل أمر يبدو عاديا جدا وغير مرئي، لكنه يضيء كل موقعنا في الحياة. فكرت أنني أقاتل. ولكن من أجل من؟ لم أكن أقاتل مثل سلام الذي يجد معنى قتاله في التزام الآخرين، ولم أكن أقاتل مثل منعم الذي يجد نفسه في المستقبل. لقد كنت أقاتل من أجل نفسي. ألا يحق لي أن أقاتل من أجل نفسي؟ ألا يحق لي أن تكون لي حروبي الخاصة مثل الآخرين؟ في حربي تلك، وأنا أتلقى ضرباتهم والدم يسيل من أنفي، شعرت أنني أقوى منهم جميعا، أقوى من كل القادة والشرطة والمعتقلين.

دخل الشرطي الذي كان يقف خارج الغرفة وجرني من شعري، ضاربا اياي بعصاه المغطاة بالأسلاك. قال له أحد المحققين:

- إسحب هذا الكلب الى الخارج، سوف نعرف كيف نؤدبه!

قال الشرطي الذي لم يكف عن ضربي:

- سوف أجعلك تتمنى الموت نفسه.

كان المحققون الثلاثة يلهثون من التعب. رغم كل شيء

كنت سعيدا جدا، سعيدا أكثر من أي وقت مضى، فقد تحديت خوفي، قابلا بالمصير الذي اخترته لنفسي. تهاويت على الأرض أمام الغرفة، فرفسني الشرطي في خاصرتي:

– هيا انهض أيها الشقي!

سمعت أحد المحققين يقول:

– مكانه هو المعتقل رقم ٣. سوف أبلغهم بالهاتف.

نهضت والدم ينزف من أنفي على سترة البيجاما. قال الشرطي الذي كان قد سمع ما قاله المحقق مهددا:

– هناك ستقبل أيديهم من الضرب. هل دخلت أبدا غرفة للتعذيب؟

سكت. شعرت انه يتسلى بفكرة التعذيب الذي سألقاه هناك، وربما كان يطمح أن يراني أقبل يديه أيضا. وقفت كما لو انني أواجه وحشا جاء ليفترسني، متقدما الى الأمام، كما كنت أتقدم دائما، كما لو أنني ذاهب الى حفلة حياتي.

*

في الطريق الى المعتقل رقم ٣ رأيت المدينة لأول مرة منذ شهور. ولقد بهرتني حقا العمارات التي كانت تتلألأ تحت ضوء الشمس والأشجار التي تعبق بروائح أخاذة. وكان

ثمة شبان وشابات واعرابيون يمرون غير مبالين، سوى ثلاثة أطفال وقفوا وصفقوا ضاحكين. لم أكن متأكدا من حقيقة مشاعرهم. ربما صفقوا لي، ليشجعوني على الصمود كبطل أسير، او ربما للشرطيين اللذين كنت أجلس بينهما في سيارة عسكرية مكشوفة. حاولت أن ألوح لهم بيدي غير انهما كانتا مكبلتين، ولذلك اكتفيت برفعهما فوق رأسي. واستغربت ألا يعترض الشرطيان على هذه الحركة الإستفزازية. قربت يدي من جيبي الأيسر وأخرجت بأصابع يدي اليمنى علبة سيجايري، ثم قربتهما من فمي والتقطت واحدة. لم أرغب في تقديم أي سيجارة للشرطيين، لكنهما مدا يديهما والتقطا بضع سيجاير من العلبة. لم أعارض. شكراني. ثم التفت الي أحدهما وكان عجوزا ذا وجه فلاحي، سائلا اياي:

– ماذا كنت تفعل قبل الإعتقال؟

شعرت برغبة في تعذيبه:

– إنني مهندس.

التفت الشرطي الصغير الي باحترام وقال:

– لا بد أنك كنت تتقاضى راتبا كبيرا.

واصلت الكذب:

– آه، ليس كثيرا. مئة دينار فقط.

رد العجوز مستغربا:

– مئة دينار. إنه أكثر من راتبي خلال عام.

ثم سأل:

– هل أنت متزوج؟

– لا.

قال وهو يهز رأسه:

– لو كنت متزوجا لما ورطت نفسك في السياسة. عندما تتزوج ستفكر ألف مرة قبل أن تدخل السجن مرة أخرى.

*

وقفت أمام أحد الكتبة في المعتقل رقم ٣، مشبكا أصابع يدي خلف ظهري، ورأسي ينحدر فوق كتفي اليسرى، غير عارف عما إذا كان ينبغي علي أن أقول شيئا أم لا. كان الشرطيان اللذان فكا قبل ذلك السلسلة من معصمي يقفان خلفي. قال أحدهما:

– سجل اسمه ودع أحدا يستلمه.

رفع الكاتب رأسه، محدقا في، فيما كنت أنصت الى صخب العابرين في الممر. كان كاتبا عجوزا ذا شعر أشيب وشارب منحدر فوق زوايا الفم. وإذ حدقت فيه أنا الآخر

بدا لي متعبا أمام الأوراق التي تغطي مكتبه الخشبي العتيق.

سأل، مخاطبا الشرطيين:

– أين هي أوراقه؟

أجاب الشرطي الشاب:

– لا أوراق عنده. لقد أبلغنا المدير أنه سيمكث بضعة أيام عندكم قبل استرجاعه ثانية.

إحتدم الكاتب وقال بصوت مرتفع:

– لا يهمني السبب. لا بد من أن تكون له أوراق خاصة به.

– لقد قيل لنا خذوه الى هذا الموقف، وهذا ما فعلناه.

رمى الكاتب الأوراق الموجودة بين يديه بعصبية على الأرض، قائلا:

– لن أتحمل مسؤولية وجوده هنا بدون أوراق رسمية.

سأل الشرطي العجوز، متوسلا:

– ولكن ماذا نفعل؟

أجاب الكاتب:

– خذوه، لا يمكن أن أقبله.

– أية ورطة هذه؟

ألقى الشرطي الشاب نظرة غاضبة علي، كما لو أنني كنت مسؤولا عن ورطته، ثم مد يده وجرني من رسغي:

- تعال لنذهب الى ضابط الموقف.

قرع الباب فدخلت وراءه فيما ظل الشرطي الآخر واقفا أمام الباب. حيا ضابط الموقف بطريقة بدت لي مضحكة. رفع الضابط رأسه قائلا:

- ماذا تريد؟

أجاب الشرطي الشاب بلهجة خطابية:

- لقد أرسلوا هذا الموقوف معنا من القلعة الخامسة، لكن الكاتب يرفض استلامه، لأنه غير مزود بالأوراق.

أعاد الضابط نظراته الى الأوراق الموضوعة فوق مكتبه، رافعا ورقة صغيرة بين أصابعه:

- هل أنت عزيز محمود سعيد؟

قلت مندهشا:

- أجل، إنني هو.

هز الضابط رأسه:

- يا لتعاستك! سنجعلك تلعن اليوم الذي ولدت فيه.كيف جرؤت على ضرب المحقق؟ هل أنت مصاب بلوثة عقلية أم أنك تريد أن تتحدانا؟

قلت بيأس:

- لم أضرب أحدا.

قاطعني الشرطي فجأة:

- إخرس أيها الحمار. ألا ترى أنك تتحدث مع ضابط؟

ضحك الضابط بسخرية ونظر الي مشجعا:

- لماذا لا تضربه هو الآخر؟ لقد أهانك.

لم أفكر في ضربه، فقد بدا لي الموقف خطيرا، رغم ابتسامات الضابط المشجعة. ثم قال موجها كلامه الى الشرطي:

- قل للكاتب إن ضيفنا رجل استثنائي لا يحمل أوراقا. فقد اتصلوا بي تلفونيا لقبوله بضعة أيام في فندقنا حتى نعلمه آداب السكنى معنا.

كان يبتسم، وهو يتحدث الي. عندما ابتسمت أنا الآخر لطريقته الفكهة في الحديث زعق فجأة:

- هيا اغرب عن وجهي، فسوف أراك كثيرا.

*

في الزنزانة التي أضطجع فيها على البلاط العاري كان ثمة رجلان آخران، يقبع كل منهما في زاوية من زوايا الغرفة الصغيرة، منكفئا على نفسه. طيلة الليل ظل الأول

وهو شاب في حوالي الخامسة والعشرين من عمره، متكئا على الجدار ومسندا رأسه الى ركبتيه المتقلصتين، بدون أن أعرف إن كان نائما أم لا إذ لم يرفع رأسه أبدا. ترى ما الذي كان يفكر فيه هذا الشاب ذو القدمين الحافيتين؟ لقد عذب بوحشية بدون أن يتفوه بكلمة واحدة. من غرفتي كنت أسمع هستيريا الجلادين وجلبة سياطهم. ولكن صوت الضحية ظل مكتوما حتى النهاية. فكرت: لا بد أن صمته يعذبهم. الصراخ ليس سوى فخ يقود الجلاد ضحيته اليه. أما الصمت فانه يرعب أكثر الجلادين فظاظة.

- أضرب، أضرب!

- قل شيئا، إعترف.

- لن تخرج سالما من بين أيدينا.

شعرت بسياطهم تلهب جلدي أيضا، أنا الذي كنت أجلس في الغرفة العارية، أنتظر دوري. هل يمكن أن أصمت أنا الآخر؟ إن ما سيفرح جلادي هو أن أجثو أمامهم وأعوي مثل كلب. كلا، ينبغي علي أن أتخلى عن كل عضو في جسدي وأن أصمت، ليس حفاظا على سر أخفيه عنهم، وانما لأحرر قلبي من الخوف.

- آه، لقد تعبت. إنه لا يعترف.

– لا يمكن أن يصمد حتى النهاية.

أسمع أصوات الجلادين وأرتعش رغما عني. يا إلهي، أي لذة في هذه القسوة التي يمارسها الجلاد تجاه كائن يعجز عن الرد عليه؟

– هيا اربطوه من كتفيه بالمروحة!

لا بد انه معلق الآن هناك بين جلادين يلهثون من التعب. أسمع أحدهم يقول:

– دعه يتأرجح، اضرب، اضرب.

إنني أراه الآن يتأرجح بينهم، مشنوقا من كتفيه الموثقتين الى الوراء، فيما العصي وأنابيب المطاط المغطاة بالأسلاك تنغرز في جسده. إنه يتأرجح صامتا، كما لو ان الأمر يخص شخصا آخر.

– كفى، أريد أن أدخن.

– إنه بطل. إنني أحب الأبطال.

– حسنا، اصمد أيها البطل. ولكن الى متى؟

لم يكن الجلاد يسخر. إنه يعني ما يقول. فالجلادون يكرهون الضعفاء، لأنهم يرون فيهم أنفسهم. أما الأقوياء فيضفون على عملهم اللذة التي تمنح حياتهم معناها.

أفكر: هل يروي الجلادون حكايات ضحاياهم

لزوجاتهم وأصدقائهم، وربما لأطفالهم أيضا؟ لا بد أنهم يفعلون. أعتقد أن الإنسان يمكن أن يمسخ حتى بدون حجة. وهذا هو شأن الجلاد الذي يعيش على احتقار الكرامة الإنسانية.

– أطفىء سيجارتك في جسده!

– ها، ألا تخشى النار يابطل؟

– سأكوي شفتيه حتى يتذكرنا عندما سيقبل زوجته.

– أصمد يا بطل، اصمد!

شعرت أنني أشم رائحة اللحم البشري، تأتيني عبر الغرفة الأخرى. بدت لي أنها تشبه رائحة العشب البري في الربيع. فكرت: ترى لماذا يفضل المرء الموت على الحياة أحيانا؟ لا أعرف تماما، ولكن المرء لا يفعل ذلك الا عندما تصبح الحياة غير ممكنة بدون قبول كامل للموت.

أما الرجل الآخر فقد كان عاملا في الأربعين من عمره، مصابا برصاصة في ذراعه، لم تنتزع بعد، أصابته في مظاهرة اجتاحت شارع الرشيد. كان ينزف ويتأوه طوال الوقت، شاتما الجميع. لا أعرف لماذا تركوه هكذا، بدون علاج. ربما كان وجهه بغيضا الى حد أنهم تمنوا له الموت. لقد آلمني جدا، شاعرا بتأنيب ضمير تجاهه، كما لو كنت

مسؤولا عن جرحه. كان يبكي. عطفت عليه في البداية ولكنني كرهته أيضا، لعجزي من أن أفعل شيئا من أجله. فقد كنت مهملا أنا الآخر في زاوية من زنزانة أنتظر دوري في قائمة الجلادين.

انفتح الباب الموصد أخيرا ودخل اثنان لم أميز وجهيهما في الضوء الشاحب واتجها صوبي. كان الوقت متأخرا، كالعادة. فالجلادون يفضلون العمل في النصف الثاني من الليل. رأيت أحدهما يشير الي بيده قائلا، كما لو انه يدعوني الى حفلة:

- هيا انهض، إننا ننتظرك على أحر من الجمر.

عابرا باب زنزانتي الى غرفة التعذيب قررت أن أتخلى عن جسدي الذي يحسدونني عليه، سجني الحقيقي في السجن. وكنت أضيء مثل مدينة في النهار.

الفصل العاشر

عندما استيقظت وجدت نفسي ممدا على فراش وثير في غرفة سلام، تحيط بي وجوه كثيرة، تبتسم لي. إنها نفس الوجوه الغاضبة التي كانت تقف محيطة بي، ساحقة رأسي بالأحذية. ارتبكت، غير عارف بما يمكن أن أفعله او أن أقوله. وجدت نفسي أمام موقف صعب، يشبه لحظة مضاجعة يفاجأ خلالها المرء. هل ينبغي أن أشتمهم؟ ماذا أفعل إذاً؟ لقد لطخوني بعار قسوتهم، وضعوا تاج الشوك فوق رأسي، في حين كان عليهم أن يقبلوني كأخ في العائلة. فكرت: هل ينبغي أن أخيب ظنهم بي، اؤلئك العطوفين التعساء؟ لم أكن قادرا على حبهم بعد ما فعلوه معي. كانوا يبتسمون لي. هل أبتسم أنا الآخر؟ أردت أن أبكي. ولكن هل ينبغي لي أن أبكي أمام هؤلاء الناس؟ شعرت أنني عاجز عن فعل أي شيء. ومع ذلك عندما مد سلام يده، واضعا اياها فوق رأسي شعرت بإخاء نحو الجميع. إنني معهم مرة أخرى. إنهم رغم كل شيء أبرياء مثلي. كل ما في الأمر هو أن الضحية لا تنهي دورها الا عندما تتحول هي الأخرى الى جلاد، ربما بحكم الصدفة او وهم العقيدة.

قال سلام بود:

- لقد ارتكبنا خطأ فظيعا معك. أرجو أن تنسى ما حدث.

ابتسمت:

- يبدو أنه لا بد من الخطأ دائما.

- لقد كذب الشرطي علينا وحرض المعتقلين ضدك. لقد كشفنا الخائن الحقيقي على أي حال.

قلت بهدوء:

- كنت أعرفه منذ البداية.

أصيب سلام بما يشبه الصدمة:

- هل كنت تعرفه؟ لماذا لم تخبرنا إذن بالأمر؟

- لم أكن أريد أن أكون طرفا في أمر يخصكم. إنه عبدالكريم. لقد رأيته ذات ليلة ممطرة، وهو يوصل تقاريره عنكم الى الحارس الليلي.

علق أحدهم:

- من المؤسف أننا لم نعرف الحقيقة الا بعد اطلاق سراحه.

قلت ضاحكا:

- لقد تعودت ألا أثق بالرجال المفرطين في السمنة.

قال سلام خجلا:

- لن يتكرر ذلك. لقد تألمت كثيرا.

عندما حاولت أن أجلس سقط رأسي على الوسادة، فأدرته جانبا وغرقت في بكاء صامت. كانت ثمة طفولة تنزلق من بين أصابعي النائمة فوق ركبتي. لم أعد أسمع أصواتهم الخافتة كسقوط أوراق في الغابة. في الهدوء العميق الذي دخل قلبي بحثت عن وجه منعم وسمعت صوت سلوى يناديني. خمنت انه الوهم او ربما الحب. وكانت ثمة موجة تقترب من الساحل، ترتفع مزبدة كنشيد كورس مؤلف من ألف منشد ومنشدة وترتطم بالصخور البيضاء الممتدة على مدى البصر، ثم ترتد كليل يجثم فوق كل شيء.

*

ها هي سلوى تبزغ مرة أخرى من وراء الحجب، ملتفعة بالغيوم. يا إلهي، لماذا تبزغ هكذا دائما في ذاكرتي مثل نجمة الصباح عندما تحاصرني الهموم؟ سلوى دائما. سلوى الوهم الأبدي. ولكن ها هي سلوى تختفي فجأة أيضا من حياتي، مثل كل شيء آخر. كم كنت واهما عندما اعتقدت أن سلوى يمكن أن تكون لي. أعرف أنني ضللت

نفسي كثيرا، ولربما اختلقت وقائع لا وجود لها وسمعت كلمات لم تقلها. ربما لم تكن سلوى موجودة أبدا. إنها الوهم الذي يحمل روحي ويعلقها على صنوبرة حيث أنظر اليها في غبطة عبر المروج فأراها تلتمع من بعيد مثل فراشة في ممر الضوء. وفي الليالي بين بطانيتين عتيقتين كنت أتلمس أفخاذها القطنية وأتلفت ذات اليمين وذات اليسار خجلا من عيون قد تكون ترصدني.

إختفت سلوى فجأة. كفت عن الكتابة الي مثلما كفت عن زيارتي. شعرت أنها تخلت عنا جميعا. ارتبكت وأنا أواجه هذه الحقيقة التي جاءتني، بدون أن أكون مستعدا لاستقبالها. كنت أعرف منذ البداية، ولكن بدون شجاعة كافية لمواجهة نفسي، أن مثل هذ الحب غير ممكن. إنن ما الذي كانت تريده مني؟ هل كنت مجرد أداة عابرة في لعبتها؟ لعبة ذات نهاية هزلية؟ لا، لا، إن ذلك غير ممكن فهي أجمل وأعدل من ذلك. ربما كانت تريد أن تفتح لي بوابة الى الحب وهي تقول لي: أنظر الى الأمام دائما. إن كل ما تحتاجه هو الطريق. ولكنني كنت محتاجا الى ما هو أكثر من الطريق: شجاعة أن أتجاوز قيودي، كل قيودي داخل الروح وخارجها.

عندما سألت منعما ذات مرة، قبل أن يطلقوا سراحه بأيام، وأنا مرتبك تماما:

– لماذا انقطعت سلوى عن زيارتنا؟

أجابني ساخرا:

– ربما وجدت من هم أجدر منا بالحب!

– ولكن....

– لماذا؟ ألا تعرف أنها تؤمن بالحب المجاني الذي ينبغي توزيعه بعدالة على البشرية كلها؟

*

أشعر اللحظة أن حياتي قد توقفت عند محطة لم أقصدها أبدا. كل الأحلام القديمة التي كانت تملأ رأسي عن العالم تبددت دفعة واحدة. ترى كيف أمكن لتجربة السجن أن تقلب كل ما تعلمته من قبل رأسا على عقب. لم أعد على أي حال ذلك الأهوج الذي كان يعتقد أن العالم لا يكون سعيدا الا إذا كان هو الآخر سعيدا، ربما لأنني أردت أن أجبل الناس كلهم على شاكلتي. ولكن كل ذلك انتهى هنا، شكرا لله. أينبغي أن أقول: "كل ذلك انتهى"؟ لا أعرف. ولكن شيئا ما في قلبي ظل ينبئني: في اللحظة التي نعتقد فيها بأن شيئا ما قد انتهى يكون ذلك الشيء قد بدأ

لتوه. أما ما قبل ذلك فليس سوى الصفر. أيمكن إذن أن أقول بأنني عشت كل أعوامي الماضية في الصفر؟

مددت يدي الى الرسالة التي كانت قد وصلتني من أمي قبل أيام وحدقت في حبرها الأخضر. لم أكن أنوي قراءتها، فقد قرأتها مرة واحدة وازددت أسى. ولربما كرهت الرسالة التي كانت محشوة بعواطف ضارة لرجل مثلي لم يعد ما كانه من قبل. شعرت أن مصطفى العجوز، ذا الهيأة الفوضوية والجدائل الطويلة، النبي القروي الذي حكم عليه بالإعدام قبل أسبوعين والذي سيعدم بعد ساعات، أقرب الي من هذه الرسالة التي كانت تتحدث عن محام سيعمد للعمل على إطلاق سراحي. لم يعد كل ذلك يعنيني إزاء الموت الذي سيأخذ مصطفى معه في الفجر. فكرت أن مصطفى ليس نائما الآن بالتأكيد. لا بد أنه يفكر الآن مثلي في زنزانته، في القلعة الخلفية التي كانت تقع لصق القلعة التي أعيش فيها. تذكرته وهو يجلس معنا في الزاوية اليمنى من الجدار المواجه لي، تحت المصباح الكهربائي على مقربة من مذياع السجن، وحيدا وصامتا مثل كاهن بوذي في معبد. ثم ينفجر فجأة، مطلقا صيحة او صرخة إعجاب بحدث ما بين الحين والآخر، ليعود ثانية الى صمته

العميق. فكرت: ترى ما الذي يفكر فيه الآن؟ الساعة أشعر أنه معي، يثقل مصيره قلبي. إنني أحسه الآن، هو المبهم الصامت، الخارج على العالم، المنتظر موته، أكثر حياة منا جميعا، مني أنا المتغير الذي يحمل جثته على كتفيه، من سلام المنذر بالثورة الطبقية التي لا هوادة فيها، كحلم في أقصى المستقبل، من عبدالكريم، المخبر السري الذي مثل دور المناضل ومضى، من سلوى التي تركت جرحها في قلبي، من منعم الذي عبأ رأسه بالأفكار عن عالم جديد آخر.

نادى الحارس الذي يقف فوق السور المحيط بالقلعة بأعلى صوته:

– إنهم يعدون المشنقة الآن.

ثم أضاف:

– رجل طيب، ولكن يقال إن كثيرين ماتوا بسببه. ليكن الله معه في محنته.

سألت الحارس:

– ترى ماذا يفعل مصطفى الآن؟

كان في إمكان الحارس رؤية الساحة الأخرى للسجن، حيث تنصب المشنقة:

– لا أدري. لكنه رجل، وعليه أن يواجه موته بشجاعة.

– هل كنت تحتفظ بشجاعتك، لو كنت أنت المشنوق؟

ضحك للفكرة بصوت عال، مضيفا:

– أعتقد أنني كنت سوف أخرأ على نفسي. ما أحقر الدنيا لو لم تكن عندي زوجة وأطفال.

ثم سألني، كما لو أنه يطلب التواطؤ معه:

– وماذا عنك؟ هل كنت ستخرأ على نفسك أيضا؟

شعرت برغبة عميقة في أن أصمت، ومع ذلك قلت له بطريقة غامضة:

– لا أعرف، لم يعد ثمة شيء مهم.

إنطلقت ماشيا بعيدا عنه. سمعته يقول:

– كان ينبغي أن تتزوج حتى تعرف كم هو صعب ومؤلم أن يسجن الإنسان او يشنق.

*

صعب ومؤلم؟ هل يكفي ذلك ليصف ما أشعر به تجاه رجل يعرف أنه سوف يشنق بعد ساعات؟ ربما كان لكل منا ألمه الخاص به، ولكن ألم مصطفى الآخر لن يعرفه أحد غيره. إنه لن يكون قادرا على العيش مثلي ليروي لنا عذاب رجل معلق من عنقه بحبل مضفور جيدا. لم تسنح لي

الفرصة من قبل لأرى رجلا يشنق وسط طقوس خاصة كما يفعلون الآن، لكنني إذ كنت طفلا شاهدت ما يشبه الشنق. كان الألوف من الناس قد خرجوا الى الشوارع. مظاهرات دموية غاضبة، رايات ملونة، أقدام مسرعة وصرخات حادة. أذكر أن الجميع كانوا يصرخون، كما لو انهم أصيبوا بالجنون. أطلق رجل ذو سحنة داكنة عدة رصاصات من مسدسه على مخزن مقفل، فيما راح الآخرون يكسرون بالحجارة والعصي أضواء النيون وواجهات ولافتات المخازن والحوانيت. كنت أعيش حقا في كرنفال غريب. كان الرجال يبدون لي دائما عقلاء وجامدين لا تستهويهم ألعابنا المثيرة، الا أنهم بدوا لي هذه المرة مثلنا، نحن الأطفال، مغرمين باللعب حتى النهاية. شعرت أنني أنتمي اليهم. كان علينا أن ننتصر على أعدائنا المؤقتين الذين تتطلبهم قواعد اللعبة، مثلما كنا نفعل دائما.

عندما كنت في الثامنة او التاسعة من عمري كان أطفال محلتنا يجتمعون أمام باب منزل أحد الأثرياء ويختارون قائدا للجيش وعلما. كنت دائما واحدا من الجنود. أقف وأنصت الى قائدنا الذي كان يأمرنا بأن نكتسح قواعد

أطفال المحلات المجاورة وأن نمزق علمهم ونمرغه في الوحل. كانت أسلحتنا هي الحجارة والعصي. بيد أن بعض الأطفال الكبار كان يتسلح بسكاكين مسروقة من البيوت. ذات مرة عندما هاجمنا منطقة عدوة تعرض جيشنا للهزيمة، فألقي القبض على قائدنا وتعرض للضرب والأسر، لكنه بدل أن يستسلم استل سكينه وطعن طفلا كبيرا في مثل سنه. خفت كثيرا ففررت، عائدا الى قاعدتنا أمام منزل ثري المحلة، شاعرا أن ثمة أمرا جللا قد وقع، لكنه كان يبهرني.

ها أنذا مبهور مرة أخرى، أنظر الى هؤلاء الذين يهاجمون بعضهم. كان علي أن أنتمي الى جيش ما، فاخترت أن أكون مع جيش المنتصرين. لم أكن أعرف المهزومين، لكنهم كانوا أعدائي بالتأكيد. إندفعت مع الموجة البشرية المتدفقة الى الأمام باستمرار. ثمة أرجل تتحرك بدون انتظام وهتافات تخرج من آخر الحنجرة في ذلك المساء العجيب. سمعت أحد الرجال يصرخ بنا:

- اهجموا، حطموا كل شيء!

كان ثمة كثيرون قد اقتحموا المتاجر في طريقهم، بعد أن حطموا أبوابها المقفلة وراحوا يحملون كل ما تصل اليه

أيديهم. رأيت رجلين ينقلان جهاز تلفزيون، وهما يهتفان باسم الجماهير. وقف رجل أمام المتجر، صارخا:

– توقفوا، ماذا تفعلون؟ إننا لسنا لصوصا.

رد عليه أحد الفلاحين:

– إنهم أعداؤنا، هيا احمل حصتك أنت أيضا ولا تكن حنبليا.

قال الرجل:

– كلا لا أستطيع. يا للعار!

ظل الرجل مترددا لا يعرف عما إذا كان مخطئا أم لا. ثم نظر حواليه بخجل. وإذ تأكد أن لا أحد يعيره بالا دخل هو الآخر المتجر المنهوب، هاتفا باسم الشعب.

جرني شخص ما من يدي، ناهرا اياي:

– ماذا تفعل هنا؟ هيا عد الى البيت أيها الصغير قبل أن تصيبك رصاصة طائشة.

لم أعد الى البيت. سرت مع الناس حتى بلغت ساحة الميدان، حيث الألوف يضجون بصراخ متشنج. على بعد أمتار رأيت شابا يضرب. كان وجهه ملطخا بالدم. سمعته يصرخ متوسلا الى رجل في أواسط عمره:

– أرجوك انقذني، أقسم أنني لست منهم.

لكن الرجل ركله بقوة مما جعله يسقط على وجهه فوق اسفلت الشارع، فتقدم وسحق وجهه بحذائه:

– إنني أعرفك جيدا أيها الكلب. سوف نشنقك مع الآخرين.

كانت قد علقت في الجهة الأخرى جثتان عاريتان على عمود كهرباء، يدور حوله الناس راقصين وفرحين. أمسك بضعة رجال بالشاب المدمى وسحبوه الى عمود قريب ارتقاه رجل ذو عضلات ناتئة. كان الشاب يعول، مدركا المصير الذي ينتظره. رغم الدم الذي كان يغطي وجهه وعينيه لمحت قطرات دمع تتلألأ فوق وجنتيه القانيتين. سحب الرجل نو العضلات طرف الحبل ومرره بأحد القضبان الناتئة ثم مده الى الأسفل نحو الواقفين الذين وضعوا الأنشوطة في عنق الشاب المدمى. إندفع العديد من الرجال لجر طرف الحبل. كان الشاب يصرخ:

– أرجوكم، أقبل أيديكم، إنني لم أفعل شيئا ضدكم.

فجأة رأيت عينيه تجحظان وصوته يختنق، فيما ارتفعت رجلاه عن الأرض. ظل يرفس برجليه كالمخبول. إرتفع نصف متر عن الأرض. كان لا يزال يقاوم موته، ناظرا في عيني مباشرة. ضجت الجماهير المحتشدة في الساحة

بالتصفيق. همد الجسد أخيرا فظل معلقا في الفراغ بعد أن عقد الرجال طرف الحبل وشدوه بعمود الكهرباء، ثم وقفوا ينظرون بإعجاب الى الضحية التي كانت من صنع أيديهم.

رأيت ثلاثة أطفال على الرصيف المقابل يرمون الجثث بالحجارة فذهبت اليهم لأشاركهم اللعب. قال لي أحدهم، مشيرا الى إحدى الجثث المعلقة:

– هل تستطيع إصابة قضيبه؟

كان المشنوق عاريا تماما وقضيبه يتدلى بتراخ بين فخذيه المشعرين. قلت:

– سأحاول.

ولكنني إذ قذفته بالحجارة أصبت فمه المفتوح. ضحك الأطفال وقال لي أحدهم:

– لقد كسرت أسنانه. لن يكون قادرا على تناول طعامه بعد الآن.

*

في الجانب الآخر من المعتقل كان مصطفى يودع العالم، ربما بنوع من الحزن المشوب بمفهومه البدائي عن البطولة. لو كنت أجلس الآن في زنزانته لما نمت لحظة

واحدة، ليس من الخوف وانما من أجل الحياة التي ينبغي أن تعاش بامتلاء حتى آخر لحظة فيها. إن قسوة الحياة لا تلغي حقيقة أنها أجمل ما في هذا الكون، أجمل وأعمق من أي شيء آخر. أسأل نفسي: ترى هل يمكن للمرء أن يموت قبل أن يداخله اليأس؟ كلا، لا أعتقد ذلك. إن المرء يكافح جرثومة الموت حتى اللحظة الأخيرة. ولكن كل هذه القسوة التي يعريها الموت لا تبرر لحظة خيانة واحدة. من أجل ذلك ينبغي أن تعاش الحياة بشرف. وعندما يكون الموت شرف حياتنا ينبغي أن نقبل به بهدوء وصمت، حتى لا نخون ذكرى وجودنا في العالم، مهما كانت الأسباب.

الساعة تشير الى الرابعة صباحا، وأنا متكئ على جدار السجن، جالسا على دكة جصية، أحدق في الليل الذي يملأ السماء، فيما النسائم الربيعية تحمل الى أنفي رائحة متداخلة لأزهار كثيرة في الخارج. كان كل السجناء قد لجأوا الى مهاجعهم وناموا. لقد حزنوا حقا لموت مصطفى واكتفوا بذلك. ماذا يمكن أن يفعلوا؟ أما أنا فقد فكرت: لا يمكن أن أنام وأتركه وحده. فإذا كنت عاجزا عن أن أفعل شيئا من أجله فلأسهر معه على الأقل في ليلته الأخيرة. صحيح إن ثمة جدارا يفصل بيننا، زنزانة مغلقة، ثيابا

حمراء ومشنقة منصوبة، الا أنني شعرت أن من العار أن أنام وأهجره او أتركه وحيدا يواجه موته. كان ضميري مجلودا، لا يسمح لي لحظة واحدة أن أخونه. ولكن ماذا عن ضمائر الآخرين؟ أجل، إنهم يمتلكون الضمير، ولكنهم يريدونه أن يكون ضميرا ذا جدوى، ضميرا يسمح لهم أن يناموا ويحلموا بزوجاتهم حتى عندما يكون ثمة صديق قريب من القلب، يعدم على بعد أمتار منهم.

دخنت الليلة علبة سيجاير كاملة. كانت سيجارتي الأخيرة بين أصابعي عندما سمعت عبر الجدار في الساحة الأخرى أصوات رجال يتحدثون ومضربة تدق المسامير. فكرت: لا بد أن الجلادين قد استيقظوا. هاهم يضفون لمساتهم الأخيرة على المشنقة التي ينبغي أن تتحمل ثقل رجل سوف يعلق من عنقه.

– تأكد تماما من قوة الأعمدة!

لا بد انه المدير. وبالفعل ازداد الطرق الرتيب على الخشب. كان جسمي كله يختض. حاولت أن أسيطر على ركبتي، الا انني أخفقت، مصابا بالحمى التي كنت أشعر بها في أعصابي. رأيت أمامي صحراء تمتد حتى الأفق، أبحث فيها عن شيء ما، ربما عن حياة مصطفى المستحيلة،

ربما عن سلوى التي لم تعد تكتب لي. شعرت بعطش شديد، ولكن لا رغبة لي في تناول الماء، ربما من الحزن او ربما من خجلي في مواجهة الموت. آه، لماذا لم تعد سلوى تكتب لي؟ لماذا كل شيء؟ لماذا؟

الفصل الحادي عشر

مرت شهور أخرى علي بدون أن يطلق سراحي. لم أعد مغتما مثلما وجدت نفسي في بداية دخولي القلعة الخامسة، فقد تعودت على الحياة هنا بطريقة أنستني صورة الحياة الأخرى في الشوارع، ربما بفعل من قناعتي الجديدة: لا يهم أن يكون المرء مدانا حتى يوضع في السجن. كل ما في الأمر هو انه قد يدخل السجن بطريقة ما، وعليه عند ذاك أن يقتنع بمصيره الذي قدر له. ومع ذلك لم أفقد الشعور بأن العالم الخارجي يمتلك هو الآخر مغرياته الخاصة به. كنت أشعر أحيانا بوخز داخلي سرعان ما يندمل كلما أطلق سراح أحد من أصدقائي، ليس غيرة منهم وانما لافتقادي اياهم. ولذلك وطدت نفسي مع الزمن الا أعقد صلات وثيقة مع السجناء، كما يحدث في الحروب. ففي الحرب والمعتقل ينبغي الا نحب أحدا كثيرا، لأننا قد نفقدهم في اي لحظة، رغم اختلاف سبل الفراق.

قبل حوالي شهر نصحت بأن أقدم التماسا أطلب فيه اطلاق سراحي او توجيه تهمة ما الي على الأقل. لكن شيئا لم يحدث. ثم عرفت من عريف في المعتقل أن وجودي في

المعتقل بدون اضبارة او تهمة أخذ يثير قلق الإدارة. لقد تجنبوا طويلا إثارة قضيتي حتى لا يورطوا أنفسهم في مثل هذه القضية الملتبسة، إذ كيف يمكن اعتقالي بدون أن تكون هناك اضبارة خاصة بي. لم يكن ما قاله لي العريف تخمينا مجردا، فقد استدعيت بعد ذلك بأيام الى غرفة مأمور المعتقل الذي قال لي مبتسما:

– إجلس ودعنا نبحث عن حل لمشكلتك! رجل بدون إضبارة؟ كيف قبلناك عندنا طيلة هذه المدة؟

قلت هازلا:

– كان عليكم أن تقذفوا بي الى الخارج، ولكنكم لم تفعلوا.

– هراء! ليس الأمر بمثل هذه السهولة.

– ما ذنبي إذا كنتم قد أضعتم اضبارتي.

– أضعنا إضبارتك؟ من قال ذلك؟ إنك لا تملك أي إضبارة على الإطلاق. إن وجودك بهذه الصورة قد يثير الشكوك حولك، فلربما كنت قد حللت مكان سجين هارب حتى لا نشعر بفقدانه عند تعداد السجناء.

– ولكن هذا وهم، كما تعرف.

– حسنا، لنفكر بايجاد مخرج لك من ورطتك.

ثم إذ انتبه الى أنني كنت لا أزال واقفا أضاف:

- هيا اجلس. لماذا أنت واقف هكذا؟

جلست على كرسي يقع الى يسار منضدته الخشبية التي تكدست فوقها اضبارات وأوراق كثيرة، فقدم لي سيجارة أخذتها منه بدون أن أشكره وقلت:

- حسنا، ما العمل؟

قال لي وهو يحدق في:

- لقد كتبنا الى جميع دوائر الشرطة والأمن، نستفسر عنك، ولكننا لم نحصل على أية معلومات. لا أحد يعرف شيئا عنك مثلما لا نعرف نحن أيضا سببا لاعتقالك. لماذا اعتقلت؟

- لقد قلت لكم ذلك من قبل، ولكنكم لم تصدقوني. لقد اعتقلت خطأ، بدون أي مبرر، وأنا جالس في المقهى، حيث اقتادوني الى الموقف الذي أمضيت فيه بضعة أيام قبل أن ينقلوني اليكم. أرجو أن يكون ما أقوله سببا كافيا لإطلاق سراحي الآن على الأقل.

ضحك المأمور قائلا:

- ليس الأمر بالسهولة التي قد تعتقدها. فما لم تتحدد تهمتك ستظل ضيفا عندنا الى الأبد. لا أحد يمكن أن يصدقك. إن الشرطة لا تعتقل الناس من المقاهي بدون

أسباب. ينبغي أن تقدم لنا تفسيرا معقولا لاعتقالك.

- هذا هو الواقع. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

رد بشيء من التواطؤ:

- الحكومة تراجع الآن ملفات المعتقلين. هناك لجنة تنظر في قضايا المعتقلين وسوف تسأل عنك بالتأكيد. سوف يثير أمرك الريبة إذا ما عرفوا أنك معتقل بلا إضبارة. ولذلك لا بد من أن نقدم تبريرا معقولا لبقائك في المعتقل طيلة هذه الفترة. لا بد من المنطق في كل شيء. إن سبب فساد الأمور في كل مكان هو انعدام المنطق، فبدونه يتهاوى كل شيء. هذه هي القاعدة التي يتعلمها كل شرطي في العالم.

ثم أضاف:

- ما رأيك في أن ندبر لك جريمة عابرة، ننسبها الى زمن ما في الماضي. ثم نسعى لإطلاق سراحك. إن ذلك يسهل الأمر كثيرا عليك وعلينا.

رميت بعقب سيجارتي خلسة على الأرض وسحقتها برجلي قبل أن أقول له هازلا أنا الآخر:

- حسنا، أي جريمة تريدني أن أرتكبها؟

كان المأمور ذو الوجه المنتفخ يفكر بطريقة بدت لي

مضحكة، فقد كان وجهه خاليا من التعبير كقطعة معدن.

قال:

- أحبذ أن تكون جريمة سياسية حتى نبرر وجودك في معتقلنا.

قلت مواصلا اللعب معه:

- ماذا تقترح مثلا؟

أجاب:

- ما رأيك مثلا في شتم رئيس الدولة في أحد المقاهي أمام حشد من الناس؟ سوف نقنع صاحب المقهى والنادل مع أحد أفراد الشرطة بالشهادة ضدك؟

قلت مستنكرا:

- لا، لا، لا أريد ذلك. إنها تهمة خطيرة.

رد ضاحكا:

- ليست خطيرة على الإطلاق. إنها لن تكلفك أكثر من ستة أشهر، بينما أمضيت أنت أكثر من عشرين شهرا في المعتقل. ها. . . ماذا تقول؟

- جد لي جريمة، لا علاقة لها برئيس الدولة.

فكر قليلا قبل أن يقول:

- ما رأيك في ضرب شرطي في الشارع؟

- ولماذا أضربه؟

- لأنك تكره الشرطة.

قلت:

- كلا، دبر لي جريمة معقولة ومنطقية، ما دام سبب فساد الأمور في العالم هو انعدام المنطق كما تقول.

رد بكل جد:

- إنها جريمة رمزية لتسهيل اطلاق سراحك، فلا تصعب الأمور علينا كثيرا.

وإذ وجدني غير مقتنع بارتكاب جرائمه التي اقترحها علي قال، كما لو انه تعب من التفكير:

- ما زالت أمامنا بضعة أيام أخرى. سوف أدبر لك أجمل جريمة. إعتمد علي في ذلك.

شكرته على اهتمامه بمصيري وقفلت راجعا الى غرفتي في القلعة الخامسة برفقة شرطي كان يقف أمام غرفة المأمور، منصتا الى حوارنا. في الطريق قال لي:

- المأمور رجل طيب، سيدبر لك كل شيء، فلا تقلق. إنه هو الآخر في ورطة، ولكنه سوف يعثر على الحل المناسب. إننا غالبا ما نقع في مشاكل من هذا القبيل. فقبل شهور عندما كنت أقوم بنقل تسعة أجانب نحو الحدود، كانوا قد

تسللوا الى البلد بدون جوازات سفر، تمكن أحدهم من الهرب، مستغلا فرصة نقلهم من سيارة الى أخرى. لم يكن ليهمني مصيره كثيرا لولا أنني كنت مطالبا بايصال تسعة أشخاص وليس ثمانية. لقد اغتم زملائي الشرطة الآخرون وفقدوا صوابهم، لكنني سرعان ما عثرت على الحل. طلبت منهم أن ينتظروا بضع دقائق فقط. ثم خرجت الى الشارع أبحث عن شخص يحل مكانه. في البداية وجدت بعض الصعوبة. لكنني اهتديت الى الحل عندما رأيت صفا من ماسحي الأحذية الجالسين على الرصيف. وقفت أمامهم. كان علي أن أختار واحدا منهم. دفعت بحذائي الى ماسح أحذية كهل، قائلا له: لا بد أنك تعيش وحيدا هنا؟ أجاب: كلا، إن لي عائلة كبيرة وعلي أن أوفر الطعام لأطفالي. إننا جميعا نعيل عوائلنا. ضحك شاب كان يجلس الى جانبه وقال: ما عداي أنا. سألته: أليست عندك عائلة؟ رد: لا. سألته ثانية لأطمئن تماما: ولماذا أنت بلا عائلة؟ قال: لقد ماتوا جميعا يا سيدي.

عندما انتهى الكهل من مسح حذائي سألت الشاب: ما اسمك؟ أجاب: جمعة. فقلت له بلهجة مطمئنة: هيا يا جمعة، تعال معي. سألني: ولكن لماذا؟ اضطررت أن أكذب عليه،

فقلت له: هناك عمل أفضل لك من مسح الأحذية. لقد جعلته يعتقد أن ثمة فرصة ذهبية تنتظره. أراد أن يحمل صندوقه معه، لكنني قلت له: دعه في مكانه، فلن تتأخر كثيرا. لكنه لم يعد أبدا. لقد ملأ جمعة الفراغ الذي تركه ذلك الرجل اللعين الذي هرب منا. لقد تأثرت حقا من أجل جمعة، ولكنه كان الرجل المناسب، إذ لو أخذت الرجل الكهل معي لشعرت بتأنيب الضمير. لقد كان من حقي أن أفعل ذلك، إذ لم أكن أريد أن أفصل من عملي لأن متسللا لا قيمة له فر من أيدينا.

*

مر علي أكثر من شهر بدون أن يطلبني المأمور ثانية لنبحث في ايجاد جريمة مناسبة لي. يبدو أنه قد لفق كل شيء بنفسه، عاثرا على الحل بطريقته الخاصة به، وهو أمر لم أعد أهتم به كثيرا. فقد زهدت، ربما بفعل الراحة في المعتقل، حتى بحريتي ورحت أتساءل مع نفسي: ماذا أفعل إذا ما دفعوا بي الى خارج جدران السجن؟ لقد فقدت عملي ولن أكون قادرا على العثور على اي عمل آخر خارج الوظيفة التي كنت أمارسها. كان يؤلمني أنني كائن بدون جذور، إذ لا أحد يمكن أن أعول عليه في مد يد المساعدة الي.

آه، لكم كنت مغفلا عندما اعتقدت أن سلوى يمكن أن تكون قضيتي التي تبرر عودتي الى العالم الذي انقطعت عنه! لكنها لم تكن سوى حلم من أحلام اليقظة التي تعصف برأسي كلما خلدت الى نفسي. لقد تغير كل شيء، فها أنذا أجد حريتي وسعادتي في هذا الوكر البائس الذي لا يطالبني بثمن، حيث الأصدقاء والسيجاير والطعام والكتب والنوم المجاني أيضا. ماذا أريد من العالم أكثر من ذلك؟

ومع ذلك ما كان في امكاني أن أمنع نفسي من مغادرة نفسي: كنت أحلم دائما بشقة تطل على نهر دجلة وفتاة أتلصص عليها من ثقب الباب. كان الحلم يتكرر كل ليلة، ولكن بتفصيلات مختلفة حتى لكأنه ألف سيناريو لقصة واحدة. وإذ أستيقظ من حلمي كنت أدخن سيجارة، مراقبا رفاقي النائمين في الغرفة، الملتصقين ببعضهم، الأصدقاء الغرباء، قائلا لنفسي: يا لنا من أصدقاء رائعين. ها نحن ننام ثانية على فراش واحد، مثلما كنا نفعل قبل مليون سنة داخل الكهوف على مقربة من صخرة الديناصور.

أشعر أن الفصول تتعاقب وتمر علي، غير آبهة بي، كما لو انني موضوع محايد تماما. ولكي أكون موضوعيا مع

قليل من الفهم كنت أتوجه الى نفسي دائما: ما الذي أريده من العالم بالضبط؟ أعتقد أنني لم أعد أعرف أين تكمن الحقيقة وعما إذا كانت كل هذه المباغتات التي يصدمنا بها العالم على شكل موجات من الذكريات والمعايشات والأحلام هي الأخرى فصول في لعبة إنسانية طويلة. وما خلا ذلك فقد كان هذا النهار ساحرا، إذ بدا لي أنه أكثر ألقا من كل النهارات الأخرى التي مرت علي بدون أن تترك أثرا في القلب او الذاكرة.

ها هي الشمس الشتائية الباردة تضيء أعالي الجدران، وقد انحدرت فيما بعد الى الجدار الوسطي، مقسمة الساحة الى قسمين، بقعة مستطيلة طويلة في الشمس وبقعة أخرى في الظل. وقرب الجدار كانت ثمة كتل بشرية، إنها أربع فيما إذا اعتبرت نفسي كتلة أيضا. ثمة ثلاثة شبان يجلسون الى يساري وجميعهم في عمر متقارب، بين الثامنة عشرة والعشرين، يجلسون الى يساري. إنهم يرتدون بيجامات ذات ألوان غامقة، ويعتمر الأول من جهة اليسار طاقية حمراء منقطة بالأبيض. كانوا يتحدثون بلهجة آسفة عن علاقاتهم الجنسية مع الفتيات اللواتي يعرفونهن. وعلى مقربة منهم كانت ثمة عصافير تنقر في أواني الطعام

المسودة المرمية على الأرض، ملتقطة حبات الرز المتناثرة. ثمة عجوز يحتسي الشاي مع معلم من إحدى قرى الجنوب، متكأ بمرفقه على جدار غرفة المقهى. والى يميني كان يقف كرديان يتحدثان عن الجبال التي تكسوها الثلوج في الشتاء، كما لو انها قلاع أسطورية مهجورة، وعن الدببة التي تختطف الفتيات الناضجات من القرى، متخذة منهن زوجات لها.

*

تغيرت الحياة في القلعة بعض الشيء، فقد قامت إدارة المعتقل بنقل عدد كبير من الموقوفين الى أماكن أخرى مثلما تم اطلاق سراح بعضهم الآخر. وذهب آخرون الى السجون البعيدة، بعد أن أصدرت المحاكم العرفية ضدهم أحكامها الجائرة. ولكن المعتقل لم يفرغ أبدا. فقد كان ثمة على الدوام معتقلون جدد يأتون الينا في موجات متعاقبة. وهكذا أصبحت بعد عامين من الإعتقال واحدا من القدامى. فقد حكم على سلام بالسجن لمدة عشر سنوات، فودعناه معانقين، بعيون دامعة، فيما نقل رافع مع آخرين الى معتقلات النفي القائمة في قلب الصحراء. بعد أن تشتت معتقلو القلعة الخامسة مع الزمن شذر مذر لم يبق فيها

سوى المعتقلين العابرين الذين كان معظمهم من الطلاب المتأففين الذين يضيقون ذرعا بأسوار السجن العالية. كنت أجد الكثير من المتعة في التحدث اليهم وشد أزرهم. تغيرت حياة المعتقل، بدون صدمة كبيرة. فقد كان الأصدقاء يغادروننا، بدون شعور بالفجيعة. ومع الزمن رحت أقيم صداقات جديدة مع الوافدين الجدد. عاد سلمان، عامل السكك، الى زوجته، منتهيا من القطارات التي كان يسيرها في الليالي بعد أن فصل من عمله. لعله يعمل الآن نادلا في مطعم او سائق سيارة او أي شيء آخر يمكن أن يخطر على البال. كما أطلق سراح حسين، معلم القرية، وعاد الى وظيفته في مدرسة أكثر بعدا من قريته السابقة. وقد كتب الي يقول: من الصعب أن يتحمل المرء وزر وجوده في مثل هذا العالم التافه.

لم أعد أشعر بالإنتماء الى مجتمع بدا لي أشبه ما يكون بجثة. الناس الوحيدون الذين أشعر الآن بحب تجاههم كانوا من الضحايا، اؤلئك الذين عشت معهم في المعتقل. أشعر أنهم اخوتي، لأنهم موجودون في الجانب الآخر من العالم، مع الهدامين المضطربين.

زارني منعم مرة واحدة فقط ليقول لي إن سلوى قد

خطبت وإنها ستتزوج بعد فترة وجيزة. لم أكن أجهل أن سلوى امرأة ممنوحة للعالم الآخر، لاؤلئك الذين تشرق الشمس من أجلهم كل صباح، في حين لم أكن سوى واحد من اؤلئك الذين يهدمون أنفسم ضمن موكب لا يقف عند أي محطة. لم أشعر بأي ألم لفقدانها، فقد كنت أعرف أنني أفقد دائما ما أحصل عليه. وبصورة ما كنت سعيدا من أجلها، لأنها ما كانت لتجد في قلبي سوى جرثومة قاتلة لا قبل لها بالعيش معها. يلوح لي أن منعما قد تغير كثيرا، يلوح لي أنه قد مات. عندما فاجأته قائلا:

– ماذا جرى لك؟ لم تعد الرجل الذي أعرفه.

أجابني مضطربا:

– إن جميع الكتب كاذبة ومضللة. لم أعد أؤمن بشيء. إن كل ما نطمح الى تحقيقه ليس سوى حلم. كل شيء ينتهي الى بوابة مغلقة. لن يكون ثمة مستقبل. هناك الحاضر فقط. لقد شبعت من مستقبل لا يجيء أبدا، وحتى عندما يجيء يكون أكثر سوءا من الحاضر.

توقف لحظة وهو يجهد في السيطرة على نفسه قبل أن يقول:

– لقد اكتشفت أنني كنت مخدوعا بالجميع، برفاق

الكلية الذين يخشون التحدث معي حتى لا يثيروا شكوك الشرطة حولهم، بسلوى التي ارتضت أن تتزوج من جثة معطرة بجيوب منتفخة بالنقود. لقد تهاوت هي الأخرى. كلهم يتهاوون. لقد أرغمت على الصمت. ماذا يمكن أن أفعل سوى أن أصمت؟ لقد تعبت. تعبت. أعرف الآن أننا جميعا كلاب. كل الناس كلاب. لقد جعلوني أكره كل شيء في العالم.

لا أعرف كيف تغير منعم وأي عاصفة اقتلعته من جذوره. كل ما أعرفه هو انه كان يبكي، وقد قلت له:

– لا تبك يا منعم، فما زال في العالم اثنان على الأقل لا ينتميان الى فصيلة الكلاب هما أنا وأنت.

لكنه صرخ في وجهي:

– كلا، ليس صحيحا هذا. إنني كلب أيضا، كلب مثل أي كلب آخر.

كان منعم يعوي، خجلا من النظر في عيني، ضد اليأس.

الفصل الثاني عشر

كانت الشتلات الصغيرة في حديقة الجميع قد كبرت وتحولت الى أشجار باسقة، مرت عليها سنتان، وكنت أنا الآخر أكبر معها. ولكن لكم شعرت بالأسى وأنا أرى نفسي أتقدم الى شيخوختي في حين كانت هذه الأشجار ذات الجذور الموغلة في الأرض تزداد نضارة. كانت الفصول تتعاقب، الأمطار وضياء الشمس، الربيع والخريف، ونحن نتقلب معها. نحمل أمتعتنا الى الداخل، وفي الصيف نعود الى الفناء الخارجي، محدقين في النجوم المتناثرة في السماء، منصتين الى المغنين الهواة في أول الليل.

لم تكن أغانيهم لتروق لي. وقد فكرت كثيرا: كيف يمكنهم أن يحبوا مثل هذه الأغاني الفلاحية المصابة بمرض الحزن؟ كانت أغانيهم نفسها تبكي دائما. كانت جرحا مفتوحا يقطر دما. لم أكن لأريد أن أزداد حزنا، فقد كان عندي من الحزن ما يكفي شعبا بأكمله. لكم وددت أن أقول لهؤلاء الباكين: ألا توجد في حناجركم أغان تجعلنا أكثر سعادة! إنهم هناك منبطحون على بطانياتهم العتيقة.

متكئين على الوسائد ينصتون الى هذا الخواء المفجع، بكاء الروح. أما أنا فقد كنت أفكر في الشموس والأنهار والحقول والعباءات والليالي في قصائدهم، بدون أن أكون قادرا على لمسها او الوصول اليها. كانت أصواتهم المتشنجة ترعبني، ربما لخلوها من الثقة بنفسها. إنهم يريدون كل شيء، يبكون من أجل كل شيء، ولكنهم ما كانوا يمتلكون الشجاعة الكافية ليموتوا من أجل كل شيء أيضا. وإذ ينامون كنت أراقبهم، وأنا أدخن حتى نسائم الفجر الاولى، متقلبين في مضاجعهم من هم لا يعلنونه أبدا. ولأنني أعرف همهم هذا حتى في ضحكاتهم المتشنجة كنت أشعر أنهم أكثر براءة حتى من الطبيعة ذاتها. كانت مهمتي في الشتاءات أكثر عسرا، فحيث يسقط الجميع بين فكي النوم الحيواني كنت أسمع تأوهاتهم حادة مثل سكين تغرز في الجنب. كان ثمة دائما من يصرخ فجأة، يستيقظ ويرفع رأسه محدقا في النائمين ثم يعود مرة أخرى الى النوم. ترى أي كوابيس كانت تطارد هذا المستيقظ الليلي؟ لا أعرف. لم أكن أعرف في الحقيقة سوى كوابيسي، لأنهم ما كانوا يتحدثون عن كوابيسهم قط. إنهم على حق، او هذا على الأقل ما افترضته، إذ ينبغي أن يكون للمرء دائما

أسرار خاصة به. ولما كانت الأحلام مشاعة للجميع احتفظوا بالكوابيس لأنفسهم.

كان لي أنا الآخر كوابيسي، في واقع الحال كابوس واحد يتكرر دائما: بينما أسير في الشارع، خالي البال، تنحرف نحوي فجأة شاحنة مجنونة، وإذ أحاول تفاديها أرتطم بحربة سياج معوجة الى الخارج، تنغرز في قلبي فيتدفق الدم مثل نافورة لا تنقطع، ثم يقترب قط رمادي ويلعق الدم المطلول على الرصيف. لكنه لا يكتفي، يصعد الي، أنا الجريح النازف المعلق على الحربة ويلعق الدم من قلبي. من صليبي أتطلع اليه، فأعرفه، إنه واحد من الناس الأكثر قربا الي.

أفكر: لماذا قدر لي أن أشهد موتي، بدون أن أكون قادرا على المقاومة؟ كنت أحيانا أسمح للشاحنة أن تمر فوق جسدي، متعبا من الحراب المغروسة في قلبي والقطط التي تلعق دمي. لو كنت أملك نقودا كافية لاشتريت لي كلبا مدربا يحميني. ومع ذلك لم أكره ذلك القط، ذا الوجه البشري، بعد أن صار صديقي الذي أفتقده في الليالي الباردة.

في كل الفصول الأربعة كنت أجلس قبالة قطعة من مرآة حصلت عليها في بداية دخولي المعتقل، لأحلق ذقني مرتين

في الشهر، لا لشيء سوى التعرف على وجهي. هكذا كنت أراقب وجهي الذي فقد نضارته الاولى. لم يعد لي انتفاخ الصحة المتورد بالدم. ثمة تجاعيد ولطخات سود تحت العينين وعلى جانبي فمي. أما أنفي فقد ظل كما هو بدون تغيير حتى لكأنه كبر في بيئة أخرى. لم يكن وجهي ليخيفني كثيرا، فبصورة ما كنت قد اعتدته، وكنت أحبه لهذا السبب وحده. ما كان يخيفني هو اهتزاز يدي. كانتا يدين صغيرتين، امتلأتا بالعروق فجأة، عروق زرقاء ارتفعت الى السطح، دافعة الجلد. عروق مغرية، مليئة بالدم. لكم وددت أن ألامسها بموسى الحلاقة، أن أضغط عليها، لولا خوفي من أن يراني قطي الرمادي فيأتي ليلعق دمي المسفوح! آه، لكم رغبت في أن أوقف هذه الفصول المتعاقبة، أن أمنعها من المجيء! هل يمكن لي، أنا الذي أراقب وجهي، أن أقف عكس الدقائق والساعات والأيام والشهور والأعوام؟ آه، إنه الزمن يهدم الرجل الذي يزداد حكمة كلما اقترب من قبره. في لحظة الموت، ويا للمهزلة، نكون أكثر حكمة من أي لحظة أخرى في حياتنا، فيما الآخرون يؤدون صلواتهم بصمت.

*

عندما غادرنا آخر مسؤول في السجن قبل حوالي شهر جرني جانبا وقال لي ببساطة:

- لقد قررنا أن نسلمك قيادة المعتقل. أرجو ألا ترفض إذ لم يعد ثمة من يمكن أن نعول عليه سواك.

ترددت قليلا قبل أن أقول:

- حسنا سأحاول. أعتقد أنني قد تعلمت الكثير منكم.

أجاب الرجل مبتسما:

- إننا نعتبرك واحدا منا حتى إذا اعتبرت نفسك خارجنا. لقد تعلمنا نحن أيضا منك الكثير.

عندما اجتاز الرجل بوابة المعتقل شعرت برغبة عميقة في البكاء. فها أنذا، الرجل الذي خرج يبحث عن مومس في مقهى، أصبح بسبب صدفة مضحكة قائدا لمعتقل سياسي. كل يوم كنت أستقبل القادمين الجدد، مانحا اياهم الثقة بأنفسهم، ومحدثا اياهم عن العالم الجديد الذي سيولد من عذابهم. لم يسألني أحد منهم عما إذا كنت قائدا بالفعل أم مجرد عابر سبيل أرغم على أن يتقدم الصفوف. وكان المدير او المأمور يطلبني أحيانا حول هذ الأمر او ذاك مما يتعلق بتنظيم حياة المعتقل. وقد قال لي المأمور ضاحكا عندما أبلغته بأنني أصبحت مسؤول

المعتقلين أمام الإدارة:

– يا إلهي، لكم كنت غبيا عندما كدت أقتنع بأنك موجود هنا بدون ذنب ارتكبته! هل تذكر؟ لقد قلت لي بأنك اعتقلت خطأ وأنت جالس في المقهى. ولكن ها أنت تتولى قيادة أهم معتقل للسياسيين. شكرا لله انني كتبت تقريرا عنك شككت فيه بكل ما رويته لنا عن نفسك. لولا ذلك لتعرضت أنا الآخر للعقاب الآن.

قلت بتلقائية:

– حقا لقد حاولت أن أضللكم، ولكن دون جدوى. كان لا بد لي في النهاية من أن أعلن عن هويتي. أجل، إنني منهم.

رد المأمور ضاحكا، مزهوا بانتصاره الصغير علي:

– هذا أفضل، أفضل كثيرا، فنحن لا نحب من لا هوية له، لأننا لا نعرف كيف نتعامل معه.

*

وقفت أمام بوابة القلعة الخامسة أنتظر قدوم معتقلين جدد، بعد أن طلبت الإدارة مني أن أهيء لهم أماكن للنوم. دخل رجل كهل يحمل على ظهره فراشه وتوجه نحو الفناء الواسع، متبوعا بعامل قال انه ليس زبونا جديدا وانه كان قد أمضى من قبل شهورا في هذا المعتقل. لم أتعرف عليه.

ربما حدث ذلك قبل وصولي الى القلعة الخامسة. فهذه القلعة موجودة قبل أن أولد وربما ستظل قائمة بعد موتي أيضا. قال العامل متأففا:

– هناك شخص آخر طلب أن يكون معنا.

كان شابا في حوالي الثامنة والعشرين من عمره، ذا وجه حزين مضطرب. استقبلته قائلا:

– تعال أيها الشاب، فأنت الآن معنا. أين حقيبتك وفراشك؟

نظر الي حائرا:

– لا يوجد عندي فراش او حقيبة. فقد كنت أجلس في المقهى عندما اعتقلوني خطأ قبل ثلاثة أيام.

ثم سألني بتوسل:

– هل تعرف متى سيطلقون سراحي؟ لست مذنبا. أقسم أنني لم أرتكب أي جريمة.

وضعت يدي على كتفه بمودة قائلا:

– لا تفكر كثيرا. كل شيء سيكون على ما يرام.

قال بحزن:

– ولكنني أريد أن أخرج. لماذا يعتقلون شخصا بريئا مثلي؟

قلت كما لو انني أقر حقيقة أزلية:

- ليس هذا مهما. ما يهم هو انك موجود معنا. أليس كذلك؟

لم يقل هذه المرة شيئا، فقد كان يحدق في الشمس على الجدار.

بغداد - منطقة بارك السعدون

كانون الأول - ١٩٧١

هذا الكتاب

رواية «القلعة الخامسة» التي كتبها فاضل العزاوي عام ١٩٧١ ونُشرت عام ١٩٧٢ في الخارج هي أول رواية عراقية تدور أحداثها داخل السجون والمعتقلات في العراق. في هذه الرواية يجسد الكاتب فكرته عن الدائرة الفلسفية للجنون السياسي، حيث ترتبط النهاية بالبداية في مسار لا يفلت منه أحد. لكنها أيضاً رواية عن الحنين إلى الحب، عن الألم والأمل والوفاء والخيانة والصداقة في عالم مليء بالإلتباسات والأوهام التي تفتك بأرواح وقلوب حالمي الثورات ومغيري العالم.



منشورات الجمل